# الهرم المقلوب

لم نكن ضائعين أبداً

AHMAD I. ALKHALEL

# الهرم المقلوب

## لم نكن ضائعين أبداً

أحمد أ. الخليل

رحلة عبر الذاكرة، والأسطورة، والخيوط الخفية تحت التاريخ...

أنت تقرأ الفصول التسعة التمهيدية الأولى من رواية "الهرم المقلوب – لم نكن ضائعين أبداً".

الإصدار الكامل: 60 فصلاً
كلّ فصلٍ منها شيفرة،
وكلّ شيفرةٍ، حجرٌ جديد في هرمٍ معكوس...
ينكشف من أعلاه لا من قاعدته.

ابتداءً من الفصل العاشر، تبدأ الرحلة عبر متاهةٍ من الرموز،
والأساطير، والانعكاسات النفسية،
رحلةٌ لا تُقدّم الحقائق كما هي، بل تفكّكها لتُعيد بناءها على حافة الجنون.

📅 تصدر بتاريخ 2026/01/01
✴️ وحتى لحظة الإصدار، تمرّ الرواية بمراحل مراجعة هادئة،
بصحبة قرّاء يمتلكون شغفاً بفكّ الرموز وتتبع الظلال بين السطور.

💰 السعر خلال فترة الطلب المسبق: $0.99
📈 السعر بعد الإطلاق: $9.99

🔗 احجز نسختك مسبقاً الآن عبر الرابط التالي:
https://books2read.com/TheInvertedPyramidar

# ملاحظة من المؤلّف

الفصول التسعة الأولى من هذه الرواية نُشرت سابقاً بصيغ أوليّة على المنصّات الشخصية للمؤلّف عبر الإنترنت. وقد تضمّنت تلك النسخ المبكرة مشاركات نُشرت على الصفحات الموثّقة التالية:

**فيسبوك :** facebook.com/alkhalel01

**سابستاك :** alkhalel01.substack.com

**تيليغرام :** t.me/son_of_chaos_en

**الموقع الإلكتروني :** soofch.com

وقد خضعت هذه المواد المختارة لاحقاً للمراجعة والتحرير وإعادة الصياغة، ليتم تجميعها في هذا الإصدار المتكامل بعناية. تمثّل النسخة الحالية الصيغة النهائية والأكثر اكتمالاً لهذا العمل.

الإصدار الكامل يأتي في 1 يناير 2026

Copyright © 2026 Ahmad I. Alkhalel

Written by Ahmad I. Alkhalel
www.soofch.com

# فهرس المحتويات

المقدمة

الفصل الأول: صيف في محطة رمسيس

الفصل الثاني: كان يبحث عن شيء لا تحويه المقابر... أقدم من الملوك وأخفى من آثارهم

الفصل الثالث: الهرم المقلوب

الفصل الرابع: تحت الجبل شيءٌ يتنفّس

الفصل الخامس: الضلع الذي لا يصعد

الفصل السادس: الكلمات التي سبقتنا

الفصل السابع: أوصياء آسيريا

الفصل الثامن: حضارة الحواس المنسيّة

الفصل التاسع: عالق بين حضارتين

الإصدار الكامل: 60 فصلاً

# المقدمة

ليست هذه رواية عن أماكنٍ غامضة أو ألغازٍ منسية.
وليست قصة مغامرة أو هروب أو حتى كشف أسرار... بل هي محاولة لاستعادة شيء لم نكن نعرف أننا فقدناه.

في صيف عام 1988، سافرت عائلة صغيرة إلى القاهرة، تحمل معها شتات أحلامٍ وملامح سياحةٍ عابرة.
لكن شيئاً ما كان يختبئ تحت طبقات الوقت... شيئاً لم يظهر في صور الرحلة، ولم يُدوَّن على الخرائط.

هذه ليست فقط قصة طفلٍ يرى رؤى غريبة، أو أبٍ يقرر فجأة أن يتبع خيطاً غير مرئي يقوده إلى قلب الجبل.
إنها قصة زمنٍ لا يسير كما نعتقد، ومكانٍ لا ينهار حين نغادره... بل حين ننساه.

كل شارع في هذه الرواية، كل جدارٍ مهمل، كل رمزٍ محفور في صخرٍ قديم، هو جزء من ذاكرة غير مكتوبة.
ذاكرة لا تتبع المنطق، بل تتبع الصمت.
صمت المدن، وصمت العائلات، وصمت الطفولة حين كانت تعرف أكثر مما يُقال لها.

"لم نكن ضائعين أبداً" ليست عن الضياع، بل عن الاعتقاد بأننا وُجدنا في الاتجاه الصحيح... فقط لأننا لم نلتفت بما يكفي.
ففي أعماق الممرّات التي لا تزورها الشمس، وفي الكلمات التي لا تُقال، يبدأ كل ما ظننّاه حلماً... ويعود كل ما حسبناه انتهى.

هذه الرواية ليست خريطة... لكنها أثر.

# الفصل الأول: صيف في محطة رمسيس

لم نكن ضائعين.

لكن الطريق لم يكن واضحاً أيضاً.

أحياناً لا تبدأ الرحلة حين تنطلق، بل حين تفقد الاتجاه.

وقد لا يكون الضياع علامة على الفشل، بل دعوة خفية لإعادة التفكير.

وفي صيف عام 1988، بدأ كل شيء بجملة واحدة من أبي.

قرر والدي فجأة أنه يريد أن يصبح مستكشفاً.

نعم، والدي... الرجل الذي كان ينشغل بالتفكير في أكثر الأوقات غرابة، حتى أن أمي كانت تطلب مني أن أقف على باب المنزل لألوّح له عندما تقترب سيارته، كي لا يُخطئ فيُدخلها إلى موقف بيت الجيران.

ورغم ذلك، كانت السيارة أحياناً تتابع سيرها حتى نهاية الشارع، ثم تعود أدراجها وكأنها تذكّرت فجأة عنوانها الصحيح.

الرجل الذي اعتاد أن يستعين بنا لتحديد موقع مفاتيحه، أو ليسأل، وقد بدا عليه الارتباك:

"هل اليمين بعد الإشارة... أم اليسار عند البقالة؟"

لم أكن أعلم ما كان يدور في عقله آنذاك.

كيف لإنسان أن يكون حاضراً تماماً في حوارٍ ما، ثم تراه فجأة يغيب، ينسحب ذهنه إلى عالم آخر، يسمعك... لكنه لا يسمعك.

ومع مرور الوقت، بتُّ أميّز بسهولة بين أبي حين يتحدث وهو يعي تماماً ما يقول، وبين أبي حين يتحدث وعقله مشغول بشيء آخر تماماً.

والأغرب أن كلماته، في الحالتين، كانت دوماً تبدو منطقية، مقنعة، رصينة.

هذا الرجل المنكّب على التفكير، والذي لا تُخوله مهاراته الميدانية حتى أن يستكشف البضائع على رف البقالة، استيقظ ذات صباح، وبعد أن شرب قهوته وأخذ رشفة طويلة من صمته، قال بنبرة تجمع بين الجدّ وحماسٍ مسرحي لا يخلو من المبالغة، وهو يلوّح بكلتا يديه في الهواء:

"سنسافر إلى مصر... لنستكشف ما لم يُستكشف بعد!"

لم يكن عالم آثار، ولا مغامراً محترفاً، بل كان مفكّراً يقضي أغلب وقته في حل الألغاز والغوص في بحور الكتب.

لكن يبدو أن فيلماً وثائقياً غامضاً شاهده ليلاً، أو مقالاً طريفاً في زاوية جريدة صباحية، قد أيقظ فيه حلماً قديماً، كان نائماً منذ عهد الفراعنة أنفسهم.

وهكذا، وبدون مقدمات تُذكر، تحوّلت رحلتنا الصيفية العادية إلى "بعثة استكشافية"، وتحوّل أبي إلى مستكشف ميداني من القرن التاسع عشر.

أما نحن، العائلة، فوجدنا أنفسنا نستعد للسفر بكل جدية، ونحن لا نزال نحاول تصديق أن كل هذا ما زال مجرد مزحة...

فلم تكن مصر ضمن مخططات العائلة أبداً، لكنها مزحة حجزت تذاكر طيران، وفندقاً على ضفاف النيل، وجلبت معها قبعة تشبه قبعات مكتشفي المقابر القديمة.

نزلنا في فندق عتيق يطلّ على نهر النيل، غرفة ضيقة بعض الشيء، لكنها تحمل سحراً خاصاً، كأنها عالقة بين زمنين.

وفي صباح اليوم الأول، سبقناه إلى قاعة الإفطار، ثم أطلّ علينا وقد ارتدى لباساً لم نعهده عليه من قبل:

قميص كتان بلون الصحراء، سروال واسع الجيبين، قبعة مستديرة تذكّر بقبعات علماء الآثار، وحقيبة جلدية يُخيّل إليك أنها تخفي برديات فرعونية.

نظرت إليه أمي طويلاً، ثم قالت بابتسامة يائسة:

"جيّد أنك لم تأتِ بالجمل إلى هنا... هل ربطته على باب الفندق؟"

لكنه لم يبتسم. بل أشار بإصبعه نحو السماء، وكأنه يرى شيئاً لا نراه، وقال:

"لن نأخذ سيارة أجرة... سنسلك الطريق كما يسلكه أهل البلد... ففي الزوايا المزدحمة، لا عند النُصب الشاهقة، تُولد الحكايات."

رفعت بصري إلى حيث يشير، فلم أجد إلا جداراً مزخرفاً ببعض النقوش في قاعة الإفطار.

قبل أن تنكزني أمي بأسلوبها المعتاد، ولسان حالها يقول:

"لا تتبع إصبعه... تتبّع فكرته!"

تلك الجملة علّمتني الكثير.

فنحن كثيراً ما ننشغل بما يشير إليه الآخرون، ونغفل عما يقصدونه.

نراقب الإصبع، وننسى الفكرة.

نفهم الحركة، ونفشل في فهم العمق.

وقد نخسر جوهر المعنى لأننا ركزنا على الدلالة، لا على المقصود.

وهكذا بدأت مغامرتنا...

ركبنا حافلة صغيرة بالكاد يتّسع فيها الجالس لأنفاسه، ثم وسيلة أخرى بالكاد تلتقط أنفاسها.

تعرّجنا في الأزقة، وسرنا بمحاذاة الأسواق والحواري، وكان والدي في كل مرة يشير إلى جدار باهت أو نقش مهترئ ويهمس:

"انظروا... ألا تلاحظون شيئاً؟"

ثم يبدأ بشرح تلك النقوش بحماسة، رغم أنها لم تكن سوى خربشات طفل، أو إعلان باهت لمسحوق غسيل، لا تمت للفراعنة بصلة.

لكنه كان يعيش أجواء الاكتشاف، وكأن الرحلة بدأت فعلاً، حتى قبل أن نصل إلى الأهرامات.

أما نحن، فلم نكن نلاحظ سوى العرق، والإرهاق، وصرير المكابح.

مرّ الوقت، وتراكم التعب، وتشابهت الوجوه والطرقات، وبدأنا نشك أننا ما عدنا نسير نحو الأهرامات، بل نبتعد عنها.

وحين بلغ بنا الضياع مبلغاً لم يعد يُحتمل، وجدنا أنفسنا، فجأة، وسط الضوضاء الكثيفة في محطة رمسيس، محطة القطارات الرئيسية في القاهرة.

نعم، المحطة التي تبعد عن الأهرامات ما يقارب العشرين كيلومتراً...

في حين أن فندقنا، عند بدء الرحلة، لم يكن يبعد عنها سوى ثلاثة!

جلست والدتي على أحد المقاعد، منهكة الوجه، تتشبّث بحقيبتها وكأنها تمسك بما تبقّى من عقلها.

نظرت إليه، وقالت بنبرة لا تخلو من الغضب:

"كنا أقرب... فكيف أصبحنا أبعد؟!"

أما هو، فجلس بهدوء مفرط، كأنما أنجز اكتشافاً باهراً، ثم قال:

"أنتِ لستِ خائفة لأن شيئاً مخيفاً قد حدث... بل لأنكِ فقط، فقدتِ السيطرة."

وتلك كانت الجملة التي فتحت لي باب الإدراك.

الخوف لا يبدأ حين يقع الخطر، بل حين نتخلّى عن قدرتنا على الفهم أو التوقع.

أنت لا تخاف لأنك في خطر، بل لأنك عاجز عن رسم حدود الواقع من حولك.

وحين يتشوش الإدراك، تبدأ الظلال بالتمدد... حتى من أبسط الأمور.

وفي تلك اللحظة، حين خفّ الضجيج من حولنا، كأن الزمن قد توقّف لبرهة، نظرتُ إلى الوجوه المتعبة، إلى المقاعد الخشبية، إلى والدي الجالس كمن بلغ غايته دون أن يخطوها... وأدركت شيئاً لم أكن أفهمه من قبل:

لم نكن تائهين.

بل كنا تماماً حيث أرادتنا الفوضى أن نكون.

ليس في ساحة الهرم، ولا على حافة الاكتشافات القديمة...

بل هنا، في محطة رمسيس، في قلب الضجيج، وفي حضن العشوائية التي اختارتنا دون أن نختارها.

وربما كانت الفوضى أكثر حكمة من خططنا.

فما حدث بعدها...

كان شيئاً لا يُصدّق.

لم يكن الاكتشاف الذي سافرنا لأجله على بُعد كيلومترات، بل كان حيث نحن تماماً.

حلم أبي، ذاك الحلم الذي بدا في لحظة ضرباً من المزاح... لم يتحقق هناك، لكنه بدأ أولى خطواته في أبعد نقطة عن مخيلتنا.

# الفصل الثاني: كان يبحث عن شيء لا تحويه المقابر... أقدم من الملوك وأخفى من آثارهم

لم يكن بيننا وبين الأهرامات سوى سيارة أجرة.

رحلة قصيرة... يمكن أن تنتهي في نصف ساعة.

لكنّ شيئاً ما كان يعلّقنا في محطة رمسيس، كأننا لا ننتظر وسيلة نقل، بل إشارةً خفيّةً لا يعرفها سوانا.

كان أبي جالساً على طرف المقعد الخشبي، لا يتحرّك، لا يتكلّم، يحدّق في فراغٍ لم نكن نراه.

ظاهرياً، بدا منهكاً مثلنا... لكنني شعرتُ بشيءٍ مختلف.

نظراته لم تكن تائهة، بل مركّزةً أكثر من اللازم - كأن عينه تفتّش عن شيءٍ بين الناس.

ثم فعل شيئاً غريباً.

أخرج من حقيبته ورقةً صغيرة، مطويةً بعناية.

فتحها بهدوء، وما إن وقعت عيناي عليها حتى شعرتُ بقشعريرةٍ تسري في جلدي.

لم أكن أعلم لماذا.

في زاوية الورقة، كان هناك رسمٌ صغير ليدٍ تحمل هرماً مقلوباً، وتحته عبارة مكتوبة بخطٍّ طفوليٍّ بالعربية.

لم تكن خريطة، ولا تذكرة... بل كانت قصاصةً من صحيفةٍ قديمة، يبدو أنها مقتطفٌ من مقالٍ يتحدّث عن الرموز الغريبة المحفورة على جدران الأحياء الشعبية في القاهرة.

لم أفهم في البداية لماذا يحمل أبي هذه الورقة معه.

الذي أذهلني هو أننا، في الطريق، كنا قد مررنا بذلك الإعلان ذاته.

وحين سألته عن ما تعنيه العبارة المكتوبة، قال إنها تعني:

"النظافة تبدأ من الداخل!"

ولم أفهم كيف عرف معناها، فهو لا يتحدّث العربية... على حدّ علمي.

ضحكنا، وتبادلنا السخرية من فكرته الغريبة، وقلنا إنه بالتأكيد محاولةٌ يائسةٌ لدمج رمزية الفراعنة في تسويق الصابون.

لكن أبي، حينها، توقّف أمامه أكثر من غيره، وتأمّله بصمتٍ غريب، كما لو أن الإعلان الباهت يحمل له معنى لا نراه... أو كأنه يقرأ فيه رسالةً لم تُكتب لنا.

حتى أنا، انتابتني قشعريرةٌ مفاجئة - بدا الرسم كأنه مهيبٌ جداً رغم بساطته الطفولية.

والآن، رأيتُ النقش ذاته على الورقة التي في يده.

كان أبي ينظر إليه كما لو أنه يحمل شفرةً.

وأنا... بدأتُ أرتجف قليلاً.

بعض تلك النقوش التي كنا نظنّها تافهة... لم يكن يراها كذلك.

كان يقرأ شيئاً لا نقرأه.

ولأول مرة، أدركتُ أنه لم يكن يلاحق خرافات... بل كان يتّبع أثراً.

وبينما كنت أراقب أبي بصمت، تسلّل إلى ذهني مشهدٌ غريب... لم أكن أعلم من أين جاء، ولا متى حدث:

كنا داخل طائرة، تحلّق بنا فوق صحراءَ بلا نهاية. كنتُ أنظر من النافذة، وأرى خطوطاً مستقيمةً محفورةً في الرمال، دوائرَ ضخمةً كأنها رُسمت من أجل عينٍ لا تسكن الأرض.

ثم التفتُّ إلى أبي، وكان نائماً... أو هكذا ظننته.

لكنه كان يهمس بكلماتٍ لا أفهمها، بلغةٍ لم أسمعها من قبل، وعيناه مغمضتان.

ثم اختفى المشهد... كأن أحدهم أطفأه من داخلي، وأعادني إلى المقعد الخشبي في المحطة.

وقبل أن أتمكّن من سؤاله، جلس رجلٌ مسنٌّ على المقعد المجاور.

يرتدي جلابيةً باهتة، وعمامةً مهترئة، يحمل كيساً من القماش، يمسك بعصاً معقوفة الرأس، توحي بأنها لم تُصنع للمشي فقط، بل لحمل شيءٍ أقدم من الطريق..

ملامحه تنضح بغرابةٍ يصعب تفسيرها... بشرته سمراء داكنة، توحي بأنه من تلك المناطق التي ظهرت في أحد مشاهد فيلم جريمة على ضفاف النيل، من بطولة بيتر أوستينوف، الذي كان والدي يصفه دائماً بأنه يجسّد العبقرية دون تكلف.

كنتُ قد شاهدتُ الفيلم معه ذات ليلة، وأتذكر مشهداً حيث كان رجلٌ يلوّح للمحقّق بوارو من سوقٍ مزدحم، مرتدياً جلابيةً وعمامةً مماثلتين، يحمل في ملامحه تلك النظرة المزدوجة: كأنه من المكان... لكنه ليس منه.

أعدتُ بصري إلى الرجل الذي جلس قربنا، وأدركتُ أنني رأيتُ تلك الملامح من قبل.

في السينما؟ ربما.

لكن الآن، كانت حقيقيةً تماماً. وكذلك كان هذا الرجل.

نظراته ثاقبة، صوته هادئٌ وعميق.

شعرتُ للحظة أنه لا ينتمي إلى المكان، كأنه يتنكّر ليبدو واحداً منهم.

بدأ الحديث بلغةٍ عربيةٍ ثقيلة، وعندما لم يسمع سوى صدى صوته، انتقل فجأةً إلى الإنجليزية بلكنةٍ بريطانيةٍ واضحة، بلغةٍ أكاديميةٍ صافيةٍ كأنها قادمةٌ من جامعة أكسفورد.

قال وهو يبتسم:

"هل أنتم تائهون؟"

لم يرد والدي. لكنه ابتسم.

تابع الرجل وهو يشير بعصاه إلى المسافرين:

"كلنا تائهون... لكن ليس بالطريقة نفسها. هناك من يتوه وهو يمشي، ومن يتوه وهو جالس، ومن يتوه وهو يظنّ أنه قد وصل."

ضحكت أمي بخفّة، وكأنها تريد إخفاء خوفٍ غير مبرر، وقالت:

"تبدو شاعراً!"

ضحك هو أيضاً، ثم أشعل سيجارة، وانقلب صوته فجأة.

لم يعد يتحدث كرجلٍ بسيط، بل بدا وكأنه فيلسوفٌ في ملابس مهترئة، وقال بلغةٍ إنجليزيةٍ بطيئة، واضحة، كمن يلقي بياناً في قاعةٍ قديمة:

"نحن نظن أننا نعيش ذروة الحضارة،

نقيسُ تقدّمَنا بعددِ الأقمارِ الصناعيةِ وعددِ الطوابقِ في ناطحاتِ السحاب،

لكن ماذا لو لم نبلغ قمة الإدراك قط؟

ماذا لو كنّا قد بلغنا ذروة الآلة فقط،

بينما وعينا الحقيقي بدأ بالتآكل منذ آلاف السنين؟

قد لا نكون في قمّة الإنسان، بل في قمّة ما اخترعه الإنسان..."

سادت لحظةُ صمت.

كأنّ المحطة كلها حبست أنفاسها، وتراجع الضجيج احتراماً لما قيل.

تلك الكلمات... تعارضت بقوّة مع هيئته الرثّة!

أدركتُ أنه قال شيئاً ثقيلاً، ما إن وقعت عيناي على أمي، حتى رأيتُها تحدّق بالرجل، وفمها مفتوحٌ بدهشةٍ نادرة.

هذه المرأة لا يعجبها شيء بسهولة... خصوصاً الكلمات.

حتى أبي، الذي أمضى حياته بين الكتب، كان ينتقي كلماته معها بعناية.

والآن، وقد بدت مصدومةً من وقع كلماته، فهذا يعني أنها كلماتٌ تستحق.

أما والدي، فقد ظلّ ينظر إليه، لا بتعجّب... بل كمن وجد شيئاً يعرفه منذ زمنٍ بعيد.

ولأول مرة منذ بداية الرحلة...

شعرتُ أن الضياعَ لم يكن عبثاً.

هناك، وسط الصمت، أدركتُ شيئاً لم أستطع شرحه...

وبدأتُ أشعر أن والدي لا يسير بدافع الفضول وحده، بل كأنّ شيئاً ما يقوده.

شيءٌ لا يراه أحدٌ سواه.

وأنه لم يكن يبحث عن الآثار، ولا عن مومياءٍ أو ضريحِ ملك، بل عن شيءٍ أقدم بكثيرٍ من كل هذا...

شيءٍ لا ينتظر في المتاحف، بل في مكانٍ لا تُظهره الخرائط.

وكان هذا...

مجردَ بداية.

# الفصل الثالث: الهرم المقلوب

"نحن نظن أننا نعيش ذروة الحضارة،

نقيسُ تقدّمَنا بعددِ الأقمارِ الصناعيةِ وعددِ الطوابقِ في ناطحاتِ السحاب،

لكن ماذا لو لم نبلغ قمة الإدراك قط؟

ماذا لو كنّا قد بلغنا ذروة الآلة فقط،

بينما وعينا الحقيقي بدأ بالتآكل منذ آلاف السنين؟

قد لا نكون في قمّة الإنسان، بل في قمّة ما اخترعه الإنسان..."

ما إن أنهى العجوز كلماته الثقيلة، حتى خيّم على المكان صمتٌ لا يشبه أي صمتٍ آخر... ليس الصمت الذي يلي المجاملات، ولا الذي يسبق الإحراج، بل ذلك الصمت الذي يهبط كغطاءٍ غامض على لحظةٍ غير مفهومة، لحظةٍ ندرك جميعاً أنها ليست عابرة، وإن لم نعرف سببها بعد.

ورغم أنني كنتُ طفلاً حينها، لم يكن صعباً عليّ أن أشعر أن شيئاً ما حدث... شيء لم يظهر على السطح، لكنه غيّر شيئاً فينا.

ربما بسبب الذهول الذي رأيته على وجه أمي، أو الهدوء الغريب الذي ظلّ يلفّ أبي، أو تلك الابتسامة الغامضة التي ارتسمت على وجه الرجل العجوز... ابتسامة من يعرف أكثر مما يقول، ومن قال أكثر مما يحتمل المقام.

ونظري، لا شعورياً، اتجه إلى يد أبي.

كان يقبض على الورقة الصغيرة كمن يمسك بمفتاح بيتٍ نسي ملامحه... ورقة مطوية بعناية، لم تكن تبدو مهمة لمن يراها، لكنها كانت في تلك اللحظة أثمن ما يملكه.

وقبل أن أفيق من تأمّلي، كان العجوز قد نهض، دون كلمة وداع، ودون أن يلتفت.

توجّه نحو مسارات القطارات، متكئاً على عصاه، كأن رحلته لم تبدأ هنا... بل تستكمل فقط طريقاً انقطع، وكان عليه أن يعود إليه.

وفجأة... تذكّرت أختي.

كانت ما تزال جالسة قرب أمي، تُلاعب دُميتها الصغيرة، تماماً كما كانت قبل الحديث، وكأن شيئاً لم يحدث.

العالم، بالنسبة لها، كان لا يزال كما هو... لعبة بيد، ودُمية بالأخرى.

أما أمي... فقد تحوّلت.

قبل دقائق، كانت خائفة.

والآن، صارت الخوف ذاته.

نظرت إليه بعينين تقدحان شرراً، وقالت بصوتٍ حاولت أن تحبسه لكنه خرج كريحٍ ساخنة:

– هل هذا...؟

هزّ والدي رأسه، ببطء، كمن يعترف بأمرٍ لم يعد ينفع إخفاؤه.

قالت وهي تضغط على الكلمات بين أسنانها:

– هل هذه هي الإجازة الاستكشافية التي وعدتنا بها؟

قال أبي:

– أنتِ تعلمين أن...

قاطعته:

– لا... لا أريد تبريرات. أريد أن أعود. إلى الفندق. الآن.

لن أشاركك هذا الجنون أكثر.

في الفندق، اندلع شجار... لكنه لم يكن عادياً.

لم يكن صراخاً... بل همساً غاضباً، كأنهم يحملون سراً ضخماً، ويخشون أن يسمعه أحد.

صرخاتٌ خافتة، عيونٌ تتكلم أكثر من الألسنة، وكأن الصوت الحقيقي لما يجري لم يكن في الكلمات، بل فيما لم يُقال.

كنت أنا وأختي نجلس في الصالة.

كانت تلعب بدميتها الصغيرة، غارقة في عالمها الطفولي، بينما بدأ شيء غريب يتسلل إليّ.

في البداية، كنت أحاول أن لا أُظهر اهتماماً، لكن الفضول بدأ يزحف داخلي.

اقتربت من باب الغرفة التي دخلاها، وضعت أذني بلطف، محاولاً أن ألتقط شيئاً.

سمعت أمي تقول شيئاً عن "بيتٍ ضاع بلا طائل".

كانت تقصد بيتاً قديماً ورثه أبي، أكبر وأجمل، لكنها تزعم أنه أضاعه في تمويل بحثٍ مجنون.

ثم سمعتها تهمس بشيء عن جدي... ومقتله... وعن روما.

وصعقني أنني سمعت كلمة "مقتله".

هل قُتل جدي فعلاً؟

لم يقل أحد ذلك من قبل. لم أكن حتى أعلم أن موته كان موضع تساؤل.

ثم جاءت الكلمة التالية... "روما".

لم أعرف ما الرابط، لكن وقعها كان مريباً... وكأنها ليست مجرد مدينة، بل اسم فصلٍ محذوف من حياة عائلتي.

ثم ارتفع صوتها فجأة:

– لقد خدعتني!

أقسمتَ لي أنك لم تعد تطارد شيئاً... أنك فقط تريد أن تصنع للأطفال رحلةً مليئة بالحماس والدهشة.

لكنك كذبت... أنت لا زلت تطارد ذلك الجنون القديم...

ذلك الذي تسبّب بموت أبيك.

لاحقاً، حين هدأت الأصوات، طرقت باب الغرفة بلطف.

فتح لي أبي، وكان شاحب الوجه، أما أمي فكانت تمسح دموعها.

جلست بجوارها، فضمّتني وهمست:

– سنعود غداً إلى لندن.

تقدّم أبي، وضع يده على كتفي، وقال:

– لم أكن أعلم أنه سيكون هناك.

ظننت أن كل ما عليّ هو تتبع الإشارات.

رمقته أمي، وقالت:

– متى عدت للتواصل معهم؟

قال:

– قبل شهر.

أرسلوا لي هذه القصاصة، ومعها رسالة قصيرة... "الأمر قد تم".

– وماذا يعني ذلك بالضبط؟

– ربما... ربما أنهم عثروا على شيء لا يجب قوله في رسالة بريدية.

قالت أمي بصوت منخفض:

– أتمنى فقط... أن لا يكون كل ذلك المال قد ذهب هباءً.

قال أبي:

– رأيتِ العصا، أليس كذلك؟

– لم ألحظ شيئاً غريباً.

– على العصا نقوش... أحدها مثلث مقلوب، وتحتها رموز هيروغليفية: عين نصف مفتوحة، وثلاث خطوط عمودية، وخط أفقي تحتها...

"ستُبعث الرؤية حين يُقلب الهرم...

والعين التي لم تولد بعد، سترى ما نُسي قبل أن يُكتب."

لم أكن أفهم شيئاً مما يقول... لكن نبرته جعلتني أشعر أن الأمر أعظم مما يبدو.

كأنه يقرأ تعويذة لا يعرف أحد إن كانت حقيقية.

ثم أكمل:

– العين غير المكتملة... هي الإدراك الناقص.

– الخطوط الثلاثة... التكرار، أو البعث.

– الخط الأفقي... حاجز الزمن.

ثم تنهد، وقال:

– المثلث المقلوب؟

منذ أن أرسلوا لي القصاصة، وأنا أبحث عن غايتهم من هذا الرمز تحديداً.

لا يوجد له أي أثر في الحضارة المصرية القديمة.

لم يُذكر في أي بردية، ولا ظهر في أي نقش... بل لم يُعترف به أصلاً كرمز مصري.

فأجريت بحثاً موسعاً، وقارنت بين الرموز، حتى أدركت شيئاً أثار فضولي:

– في الهند القديمة، كان المثلث المقلوب رمزاً للأنثى، طاقة الخلق، مبدأ التكوين، واتحاد العناصر في رحمٍ واحد.

يرمز إلى الماء، إلى الانحدار، إلى بداية الحياة.

– في اليونان، استخدموه لتمثيل عنصر الماء أيضاً، باعتباره المكوّن الأول لكل شيء، وفق فلسفة أناكسيمانس وثاليس.

كانوا يعتقدون أن الماء هو الأصل، والهرم المقلوب هو صورته الكونية.

– أما في أنظمة الشاكرات، فهو تمثيل لمركز الخلق، شاكرا السُّرّة... حيث تبدأ الطاقة وتصعد نحو الوعي.

ليس مجرد شكل... بل شفرة مخفية لطاقة الحياة.

لم يكن يوماً زينة.

بل كان رسالة.

إشارة إلى الطاقة الأولى... التي سبقت النحت، والكلمة، وحتى الزمن.

ثم سكت، ونظر نظرة حادة، كأنه يوشك أن يعترف بشيء دفنه سنين:

– جميع الحضارات كانت تقلّدهم، أو ورثت شيئاً عنهم.

لقد بنوا أهرامات مثلهم، لكن... كم هو غريب أن جميعها ظهر فيها معنى للمثلث المقلوب، إلا حضارة واحدة: مصر القديمة!

قالت أمي وهي تعقد حاجبيها:

– ماذا تقصد؟

قال وهو يزفر:

– لا أعلم بعد...

لكن من المنطقي أن نتساءل: لماذا وضع قدماء المصريين رموزاً لكل شيء... عدا هذا الرمز؟

قالت أمي بنبرة ساخرة، فيها ظل ابتسامة:

– ربما كان مقدّساً عندهم، فلم يريدوا إهانته بقلبه؟

ثم برقت عيناها فجأة، كأنها في لحظة نسيت كل غضبها، وقالت:

– يا إلهي... هل تقصد أنهم وجدوا الرمز؟

ابتسم أبي ابتسامة دافئة، لم تكن ابتسامة انتصار، بل عودة:

– هل قد عدتِ يا حبيبتي...؟

أدارت وجهها قليلاً، ثم قالت وهي تحاول أن تخفي تراجعها:

– دعك من هذا... سأسافر غداً، لكن لا بأس...
أود أن أفهم... قليلاً.

ضحك، ضحكة خفيفة، كأنه كان يعلم أنها ستعود...
أنها، في مكانٍ ما داخلها، لم تغادر هذا الطريق أصلاً.
طريق بدا أنها شاركته فيه يوماً، قبل أن تنسحب.

قال بهدوء، بينما كانت عيناه تنظران من النافذة باتجاه الأهرامات التي لم أرها بعد:

– وما السر الخطير في العثور على نقش فرعوني فيه مثلث مقلوب؟
وهل خربشة قديمة على ضريح ما يحمل هذا الرمز... تستدعي كل هذه السرية؟

لحظة صمت، تفكر فيما قاله، ثم للمرة الثانية اليوم فتحت أمي فمها بدهشة.
برقت عيناها، أعادت ظهرها إلى الكرسي كمن خارت قواه كلها دفعة واحدة.
ازدادت سرعة أنفاسها.
شيء عصف في ذهنها... فكرة مجنونة ربما!

ثم لحظة طويلة من الصمت.

كأن عقلهما غاص فجأة في عمق لا يُقال.

أما أنا... فلم أفهم كل شيء.

لكنني رأيت في عيني أبي ذلك البريق...

بريق رجلٍ لا يلاحق وهماً، بل يقترب من سرٍّ ظلّ يطارده لسنوات.

وشيء ما داخلي، رغم طفولتي، صدّق أن هذا السر... موجود هنا.

رمز الطاقة الأولى... الشرارة الأصلية...

# الفصل الرابع: تحت الجبل شيءٌ يتنفّس

"ستُبعث الرؤية حين يُقلب الهرم...

والعين التي لم تولد بعد، سترى ما نُسي قبل أن يُكتب."

هدأت الأصوات أخيراً تلك الليلة.

لم تكن المدينة صامتة، بل بدت كأنها تنحني قليلاً، تخفّض إيقاعها وتنسحب إلى ظلال الأزقة.

في الفندق، كانت والدتي تجلس قرب النافذة، تحدّق في ظلال الأضواء المرتجفة على سطح النيل، كأنها تقرأ في الماء شيئاً لا يُقرأ.

والدي كان في الجهة المقابلة من الغرفة، يتظاهر بالقراءة، لكن الصفحات لم تكن تتحرك.

أما أختي، فقد غفت على السجادة، محتضنة لعبتها الجديدة - تمثالاً فرعونياً صغيراً بعينين من حجرٍ أزرق - وهي تهمس بكلمات لا تُفهم، كلمات من عوالمها التي لا نبلغها نحن الكبار.

وأنا... كنت قد تمددتُ على السرير، أحاول أن أستدعي النوم، لكنّ شيئاً في داخلي كان يقظاً.

لم تكن عيناي مفتوحتين، ولكنني لم أنم.

كنتُ أنتظر شيئاً لا أعرفه... وأجهله.

لم أعرف متى انزلقت من اليقظة إلى الحلم، لكن فجأة كنت هناك.

أرضٌ حجرية تمتد تحت قدمي، باردة كأنها لم تلمسها شمسٌ منذ قرون.

ممرّ ضيّق، منخفض السقف، محفور في الصخر، لا مصابيح، لا مشاعل... لكنّ الجدران تتوهّج بلونٍ لا لون له.

لم يكن الضوء يأتي من مصدرٍ ظاهر، بل من الحجر نفسه، كما لو أنّ الصمت قد استحال وهجاً.

كان الممر يتقدّم بي، أو كنتُ أنا أتقدّم فيه، لا أدري.

وفي نهايته، ظهر جدار.

لكنّه لم يكن نهاية... بل بداية.

هناك، في مركز الجدار، كانت اليد.

منحوتة بعمقٍ في الحجر، تمسك بهرمٍ مقلوب، لا كرمز، بل كفعلٍ جارح.

كأنّ اليد تنزع الهرم من أعماق الأرض، أو تدفنه بقسوة متعمّدة.

ثم جاء الصوت.

لم يكن صوتاً بشرياً.

بل كان كأنّ الحجارة نفسها تتمتم، بصوتٍ عتيقٍ هشّ، أشبه بما قد يقوله الرمل لو استطاع أن ينطق:

"حين تولد الرؤية... سيعود من لم يُدفن."

استيقظت.

لم أصرخ، لكن أنفاسي كانت مقطوعة، وقلبي يضرب صدري كأنّه يبحث عن مخرج.

كان الظلام في الغرفة مألوفاً... لكنه لم يكن كما كان.

في صباح اليوم التالي، ظننت أنّه محض حلم... هلوسة خفيفة من أثر ما سمعته تلك الليلة.

قررتُ أن أتصرف كأنّ شيئاً لم يكن.

نزلنا إلى قاعة الإفطار في الطابق الأرضي.

القاعة كانت رحبة، تغمرها أنوارٌ خافتة تتسلل عبر النوافذ الطويلة المطلة على النيل، ورائحة القهوة تختلط بصوت الملاعق والفناجين، وهمسات السائحين بلُغاتٍ لا تُجمع على معنى.

جلست والدتي قبالة النافذة، صامتة كأنها ما تزال تفتّش في الليل عن تفسيرٍ لم تجده.

والدي كان يتفحّص منشوراً سياحياً مطويّاً بعناية، يُقلّبه دون أن يفتحه.

أما أختي، فكانت تبني من مكعبات الزبدة والسكّر هرماً صغيراً على طرف الطاولة، ثم صاحت بفرحٍ طفولي:

– انظروا! هذا الهرم لي، وأنا الملكة!

ضحك أبي، وربّت على رأسها.

– لا شكّ أنّكِ الملكة... لكنّ هذا الهرم صغيرٌ على سلطتك.

قالت أمي وهي ترشف قهوتها:

– بعد الإفطار، لنذهب إلى الأهرامات. لقد وعدتنا.

أومأ أبي، وقال بنبرةٍ أرادها خفيفة:

– بل نذهب، ونُرضي التاريخ قليلاً... علّه يرضى عنّا.

لكننا لم نذهب في ذلك اليوم.

بعد الإفطار، خرجنا في جولة قصيرة وسط المدينة القديمة.

زرنا المتحف القبطي، ثم تهنا قليلاً في أحد الأسواق الشعبية، حتى عدنا قبيل الغروب منهكين من الحرارة والزحام.

قالت أمي في المصعد:

– نترك الأهرامات لنهارٍ كامل... لا تليق بها الزيارات العجلى.

فردّ أبي مبتسماً:

– بل نزورها حين نكون مستعدّين للدهشة.

وفي تلك الليلة... عادت الرؤيا.

ذات الممر. ذات الجدار. ذات اليد.

لكنّ شيئاً ما كان مختلفاً.

الجدران صارت أقرب، والنقش بدا أكثر عمقاً، واليد لم تعد تمسك الهرم فقط... بل كانت تحفر تحته خطوطاً متشابكة، كأنّ هناك رمزاً أعمق يُراد إظهاره.

ثم جاء الصوت.

لكنّه لم يكن كالمرّة السابقة.

كان أقرب. داخلياً.

كأنّ الجدران لم تعد تتكلّم وحدها... بل دخلت جسدي، واستقرت فيه:

"أنت لا ترى... بل تتذكّر."

وفي اليوم الثالث، أوفى أبي بوعده.

أخذنا إلى الأهرامات.

تحت شمسٍ لا ترحم، ووسط الزحام، قطعنا الطريق عبر الرمال، تسلّقنا، وقفنا لالتقاط الصور، استمعنا إلى مرشدين لا نعرف إن كانوا يقولون الحقيقة أم مجرّد سردٍ محفوظ.

أما أختي، فكانت ترسم بعصاها الصغيرة خطوطاً في الرمال، تنظر إليها كأنها خرائط لا نفهمها، وتضحك دون سببٍ واضح.

وفي لحظةٍ عابرة، وأنا ألتفتُ نحو الأفق، رأيت بين الصخور شيئاً.

ظلّاً سريعاً... كأنّ النقش قد طُبع هناك للحظة، ثم اختفى.

رمشت... فلم يعد له أثر.

وفي تلك الليلة... لم ينتظرني الحلم.
بل كنتُ بداخله منذ اللحظة الأولى.

الممر كان يهتزّ. الجدران تنبض.
والنور ينبعث من أعماق الصخر.
وكان الجدار هناك، ينتظر.
لكن اليد هذه المرّة لم تكن تمسك الهرم... بل كانت تغرزه في الأرض.

والأصوات... لم تكن واحدة.
بل كانت عشرات. مئات.
كأنّ المكان كلّه قد استيقظ.
كأنّ الزمن نفسه بدأ يتكلّم:
"الذي في الأرض... سيقلبُ السماء."

استيقظت.

وجلستُ على السرير، دون أن أُفكّر.
ثم وقفت.
لم أعد أحتمل الصمت.
اقتربت من أبي في الصباح، وقلت له بصوتٍ لم أعرفه:
– الحلم ليس حلماً. إنه يتكرر. كل ليلة.
في كل مرة يصبح أعمق... وفي كل مرة يحدث شيء جديد.
الليلة... الجدران كلّها كانت تتكلّم.

نظر إليّ والدي.

وفي عينيه لم أرَ الدهشة... بل ما هو أخطر منها.

رأيتُ المعرفة.

صمت برهةً طويلة، ثم قال بهدوءٍ مثقل:

– احكِ لي كل شيء... من البداية.

لم يتناول والدي قهوته ذلك الصباح.

ظلّ يحدّق في الفراغ، كأنّه ينتظر من الصمت أن يعطيه إجابة.

كنتُ بجانبه، أحرّك ملعقتي في كوب العصير، أستعيد تفاصيل الحلم كما يستعيد أحدهم ألماً قديماً لا يعرف كيف يسكته.

أما أمي، فكانت تُقلب صفحات كتيّب سياحي بلا اهتمام، كأنها تمارس طقساً بطيئاً للهرب من التفكير.

بعد الإفطار، قال أبي وهو يدفع كرسيه إلى الخلف:

– سأذهب إلى الاستعلامات قليلاً. قد أحتاج مساعدة في شيء.

كان الموظف خلف المكتب، رجلاً خمسينيّاً ببذلة رمادية وربطة عنق محكمة، يكتب شيئاً في سجلّ ورقي.

اقترب أبي، وقال بنبرة هادئة:

– صباح الخير... لديّ استفسار غير اعتيادي.

رفع الموظف نظره باهتمام:

– بكل سرور، كيف يمكنني مساعدتك؟

قال أبي:

– وصف لي صديقٌ مكاناً أثار فضولي، لكني لا أستطيع تحديد موقعه. قال إنه مرّ بممرّ ضيّق محفور في الصخر، ليس كهفاً طبيعياً، بل يبدو كأنه من صنع البشر. الجدران كانت عارية، بلا نقوش، بلا زينة، لكن النهاية حملت جداراً غريباً، ربما عليه رمز أو نقش غير واضح. وكان يشعر بأنّ الضوء لا يأتي من مصدر ظاهر، بل كما لو أنّ المكان نفسه يضيء."

تأمّل الموظف للحظة، ثم فتح أحد الأدراج وأخرج عدّة كتيّبات سياحية مصوّرة.

بدأ يتصفّحها وهو يقول:

– هذا وصف نادر... لكنه يذكّرني ببعض المواقع الجانبية غير المشهورة. لدينا هنا معبد قديم في عين شمس... لكنه مفتوح تماماً، بلا ممرات داخلية. وهنا مقام صغير تحت أحد القناطر القديمة، وهناك كهف روماني قرب الهضبة الشرقية، لكنه مهجور منذ سنوات.

ثم جمع الكتيّبات ومدّها إله:

– خذ هذه المجموعة. ربما تجد فيها ما يُشبه ما وصفه صديقك، أو يثير انطباعاً مشابهاً على الأقل.

ولا تتردد في استئجار سيارة خاصة من الفندق إن رغبت بجولة طويلة، فبعض هذه الأماكن خارج المسار المعتاد.

أومأ أبي شاكراً، ثم عاد إلى الطاولة. ووضع مجموعة من الكتيّبات المصوّرة أمامنا.

قال وهو يجلس:

– الموظف لم يعطِني مكاناً بعينه... لكنه اقترح بعض المواقع التي قد تشبه ما تراه في الحلم.

أخذت أمي واحداً بعنوان "المعالم غير التقليدية في القاهرة"، وبدأت تقلب صفحاته بلا استعجال.

أما أنا، فمددت يدي إلى كتيّب أزرق اللون، عليه صورة مدخل حجريّ شبه مطمور، وبدأت أتنقّل بين صفحاته.

صورٌ كثيرة... بعض المقامات المنسية، ممرّات حجرية قرب القناطر، كهوف في أطراف المدينة، ومعابد نصف مهجورة.

ثم، فجأة، توقفت عند صورة واحدة.

تُظهر ممراً ضيّقاً من الحجر الخام، منحنياً قليلاً، بلا أعمدة ولا زخارف... فقط جدران ملساء تنكمش كلما تعمّقتَ فيها.

شيء ما في الصورة جعل أصابعي تتوقّف.

قلت بهدوء:

– يشبه هذا... كثيراً.

كأنّه هو... أو كأنّه المكان الذي رأيته، أو شيء قريب جداً.

اقترب أبي وألقى نظرة، ثم أومأ.

– لا بأس. فلنجرب هذا أو ما يقاربه. ما دام في القاهرة، يمكننا الوصول إليه.

ثم عاد إلى موظف القاعة، وطلب منه حجز سيارة من الفندق ليومٍ كامل.

ولم تمضِ سوى دقائق، حتى كانت السيارة في انتظارنا عند المدخل الرئيسي.

السائق رجلاً أربعينيّاً أنيقاً، يرتدي قميصاً نظيفاً وبنطالاً داكناً، ملامحه ودودة، ونظرته فيها اتزان لا يُخفى.

قال وهو يفتح الباب لأمي:

– صباح الخير. اسمي جرجس، وسأكون مرافقكم اليوم. سأقودكم إلى أي مكان ترغبون في زيارته.

ركبنا جميعاً، وانطلقت السيارة على مهلٍ في شوارع القاهرة.

بعد قليل من الانطلاق نحو المكان الذي اختاره والدي بناءً على الكتيّبات - مقام صخري مهجور في أطراف القاهرة الشرقية، مهجور منذ عقود لكنه مذكور أحياناً في مسارات سياحية ثانوية - بادر السائق بالحديث:

– المكان الذي اخترتموه جميل... المكان ليس مزاراً رسمياً، السياح لا يطلبونه كثيراً... لكنه مذكور أحياناً في الكتيّبات الخاصة.

قال أبي وهو يستدير إليه:

– في الحقيقة، أنا لا أبحث عن المكان نفسه، بل عن شيء يشبه وصفاً أعطاني إياه صديق. قال إنه دخل ممرّاً حجرياً ضيقاً، محفوراً بالكامل في الصخر، بلا نقوش ولا زينة، لكنه يحمل طابعاً خاصاً... في نهايته جدار يبدو كأن عليه نقشاً غريباً، وربما رمزاً غير مألوف. قال أيضاً إن الضوء لم يكن واضح المصدر... كأنّ الجدران نفسها تنبض بهدوء.

سكت السائق للحظة، ثم نظر عبر المرآة، وقال بنبرة متفكّرة:

– ذلك الوصف... مألوف جداً. لقد رأيت أماكن مشابهة بنفسي، داخل كهوف قديمة في منطقة نائية من الجبل كأنكم تصفون الكهوف القديمة الموجودة في جبل المقطم.

رفعت أمي رأسها، وقالت ببساطة:

– قرأت عن الجبل من قبل... يقولون إن فيه إطلالة ساحرة على القاهرة.

جرجس:

– نعم، وهذا صحيح تماماً. الجبل يطلّ على المدينة كلها، والمشهد من أعلاه لا يُنسى. لكن ما لا يعرفه الكثيرون... أن داخله أيضاً لا يُنسى.

نظر إليه أبي باهتمام:

– ماذا تعني؟

جرجس:

– الجبل مليء بالكهوف القديمة. بعض الناس يظنونها طبيعية، وبعضها ربما نُحت قديماً لأغراض لا أحد يعرفها الآن. فيه أماكن لا يدخلها إلا السكان المحليون، وحتّى هم لا يقتربون منها كثيراً. ويقال إنّ بعض تلك الكهوف كانت تُستخدم قبل أن يُطلق عليها أي اسم... كأنها موجودة قبل أن تُكتب قصتها.

ثم أضاف، وكأنّه يستدرك:

– وهناك حكاية قديمة يتداولها الأقباط. تقول إنّ جبل المقطم كان على وشك أن يسقط على المدينة، لكنّه "انتقل" بمعجزةٍ دينية بعد صلاة أحد القديسين.

الشخص الذي يُنسب إليه الحدث يُدعى الأنبا سمعان الخراز.

قصة رمزية طبعاً، لكن كثيرين يعتقدون أن الجبل لم يكن عادياً منذ ذلك اليوم... كأنّه يحمل شيئاً في داخله.

أبي:

– وهل المكان مفتوح للزيارة؟ أعني... هل نستطيع الدخول إليه؟

أجاب السائق:

– لا يوجد مكان رسمي أو منظّم حتى الآن. ولكني سمعت أن بعض القساوسة يخطّطون لبناء دير هناك، ينحتونه في قلب الجبل. مشروع ما زال حديثاً...كلام أنّه سيكون اسمه "دير الأنبا سمعان". حتى الآن، هي مجرّد شائعات، لكن الناس تتحدّث.

نظر أبي وأمي إلى بعضهما نظرة سريعة... لم تكن نظرة دهشة، بل ريبة.

اقترب منها وهمس بصوتٍ خافت:

– تباً... سوف يخفون أي أثر، كالعادة.

ردّت دون أن تنظر إليه:

– صرحٌ جديد... يجعل الجميع ينسى ما كان قبله.

سألت أمي السائق بحذر:

– وهل المكان آمن؟

أجابها بهدوء:

– هو في منطقة شعبية تُدعى "حي الزبالين"، والمكان غير معتاد على السياح... لكنه ليس خطيراً، خصوصاً وأنني ابن المنطقة، وأعرف كل زاوية فيه. وحتى إن لم نصل إلى داخل الكهوف، هناك أماكن مرتفعة يمكن الجلوس فيها، وقهوة بسيطة تطلّ على القاهرة كلّها.

تبادل أبي وأمي نظرة قصيرة، ثم قال وهو يتنفّس ببطء:

– لنجرب إذاً. لا شيء نخسره إن رأينا المكان.

قال جرجس بابتسامة خفيفة:

– لن تندموا... بعض الأماكن لا تُشهرها الكاميرات، بل الحدس.

انعطفت السيارة، ببطء، إلى طريقٍ لا يشبه الطرق التي على الخريطة.

ثم تدريجياً، كلما ارتفعنا، كأن المدينة تخلّت عن ضجيجها طواعية، وسمحت لنا أن نقترب من شيءٍ لم يكن لها.

جلستُ قرب النافذة، أراقب الأحياء تتبدّل، ثم تتراجع، ثم تختفي...

لم تعد العمارات مرتفعة، ولا السيارات منتظمة.

بدأت تظهر أكوام من الحجارة، وطرقات ترابية، ووجوه لا تلتفت كثيراً.

رأيت صبيةً يحملون أخشاباً مكسّرة فوق عربات حديد، وأطفالاً يلعبون بجوار جدران شبه منهارة.

ثم رأيت شيئاً أدهشني:

جداراً حجرياً نصف متهدم، عليه رسوم باهتة بالكاد تُرى... دوائر، ومربعات، وأشكال هندسية غريبة.

كأن أحدهم كان يكتب شيئاً، ثم تراجع... أو مُنِع من إكماله.

كان الطريق يضيق، والهواء يبرد.

قالت أمي، وهي تنظر من النافذة الأخرى:

– غريب كيف يتغيّر الجوّ كلما صعدنا... كأن الجبل ليس جزءاً من المدينة، بل نقيضها.

أجاب أبي، وكأنّه يستعيد شيئاً قرأه يوماً:

– جبل المقطم، بحسب الجيولوجيين، ليس جبلاً بالمعنى التقليدي، بل هضبة صخرية نشأت من قاع بحر قديم. طبقاته غير متجانسة... بعضها من الحجر الجيري الكثيف، وبعضها من الطفلة الهشّة. هذا التناوب الغريب يجعل الجبل عرضة لتكوّن فراغات داخلية، شقوق لا تُرى بالعين المجردة.

أمي، كمن تمعن في السؤال أكثر مما في الجواب:

– وهل تعتقد أنه يمكن أن يُخفي شيئاً... بالمعنى الحرفي؟

وبينما السيارة تتسلّق طريقاً ترابياً متعرجاً، نظر والدي إلى ساعته، ثم قال باستغراب:

– توقّفت البوصلة... كانت تعمل منذ لحظات.

نظر إليه السائق عبر المرآة، وقال بنبرة هادئة:

– يحدث ذلك أحياناً... في بعض المناطق من الجبل، تتصرّف البوصلة بطريقة غير مفهومة. سمعتُ أيضاً من بعض السائقين أن إشارات الراديو تختفي فجأة ثم تعود بلا سبب واضح، وكأنّ شيئاً في الهواء يعكسها أو يبتلعها. وأذكر أنّ سائحاً أجنبياً قال لي إنه شعر بدوار مفاجئ قرب أحد الممرات، كأنّ ضغطاً خفيّاً أحاط برأسه. وهناك موضع بعينه، فوق إحدى الهضاب... إذا وقفت فيه، لا تسمع أيّ صدى. الصوت يختفي تماماً، كما لو أنّ الجبل يبتلعه.

مالت أمي قليلاً إلى النافذة، ثم قالت بتأنٍّ:

– يبدو أن ما تصفه... يشبه الشذوذ المغناطيسي. لقد قرأتُ عن شيءٍ كهذا في كتاب، وتبدو أعراضه مشابهة تماماً لما ذكرته.

أومأ جرجس بصوتٍ منخفض:

– لا أحد يملك تفسيراً دقيقاً... لكن بعض الأشياء هنا، لا تُفهم بالخرائط.

أبي وهو يحدّق من النافذة الجانبية:

– هل تلاحظون هذه الزاوية؟ هناك... على جانب السفح. إنها حادّة على نحوٍ غريب. لا تشبه التكوينات المعتادة في الصخور الرسوبية.

نظر السائق عبر المرآة، ثم قال وهو يبطئ السيارة قليلاً:

– نعم، موجودة. في أماكن أعمق من الجبل تظهر زوايا مماثلة...

حادّة، ملساء أحياناً، كأنّ أحدهم نحتها عمداً. ليست كثيرة، لكنها تلفت الانتباه. حتى بعض الجيولوجيين الذين جاءوا من الجامعة قالوا إنها لا تُشبه ما يتوقّعونه من جبلٍ تكون في قاع بحر.

أمي بعد صمتٍ قصير، وهي تراقب الطبقات المتراكبة:

– الصخور الرسوبية بطبيعتها ناعمة الحواف... هذه الزوايا لا تُنتجها الطبيعة بسهولة. إما أن تكون ناتجة عن صدوعٍ عميقة جداً... أو أنّ هناك شيئاً آخر... لم يُفهم بعد.

أبي بصوتٍ منخفض، كأنه يحادث نفسه:

– كأنّ تحته شيئاً لا تلتقطه الأقمار الصناعية بسهولة. البعض يظنها مجرد تحوّلات جيولوجية نادرة، والبعض الآخر... يعتقد أنها إشارات لبنية مخفية، لم تُكتشف بعد.

ثم أضاف، وكأنه يتحدّث عن شيء يعرفه أكثر مما يريد أن يقول:

– الصخور القديمة لا تُخفي فقط... بل تختار متى تظهر. هي لا تفصح تحت الضغط، بل تحت الوقت.

كنت أستمع لهم بصمت، لكن داخلي كان يهمس بشيء آخر.

شعورٌ لم أستطع ترجمته... كأن الجبل لا يخبرك بشكله، بل بما يُخفيه عنك، وبما يريد أن يبقيه بعيداً حتى اللحظة المناسبة.

لكنّ تفصيلاً صغيراً ظلّ يطاردني...

إن كان هذا الجبل قد وُلد من قاع بحر قديم، فكيف يمكن لزاويةٍ حادّة، أشبه بحدٍّ هندسيّ، أن تستقرّ في قلبه؟

كأنّ شيئاً ما... وُجد هنا قبل البحر.

ثم جاء البحر، وتكوّن الجبل فوقه...

لعل ذلك الشيء ظلّ في الأعماق، ساكناً، ينتظر أن يراه أحد... أو يفيق.

# الفصل الخامس: الضلع الذي لا يصعد

ابتعدت السيارة شيئاً فشيئاً عن الطريق الرئيسي، وتوغلت بنا في ممر ترابي ضيّق، لا وجود فيه لأي لافتة، ولا أثر لأي عابر.

كأنّ المدينة أغلقت بابها خلفنا، وتركتنا وحدنا في حضن الجبل.

عجلات السيارة تنوء فوق الحصى، والاهتزازات تزداد، حتى خيّل إليّ أنها تتردد بين أن تكمل... أو تعود.

لكنها لم تتراجع.

وحين وصلت إلى منطقة مرتفعة قليلاً، خفّف جرجس السرعة، ثم أوقف السيارة بجانب صخرة ضخمة، ونزل.

دار حول المركبة بخطوات هادئة، ثم فتح لنا الباب الخلفي، وقال بصوته الواثق:

– وصلنا.

تلك الكلمة... "وصلنا".

لم يقل "ها نحن هنا" أو "اقتربنا"، بل نطقها كأنّه يعرف إلى أين نذهب.

بل الأغرب، أنه نطقها وكأننا نذهب إلى مكان مخطّط له... مع أننا، نحن، لم نكن نعرف أصلاً ما الذي نبحث عنه.

نزلنا، لكن أمي تأخرت قليلاً، كانت تمسك يد أختي الصغيرة بقوّة خفيفة، وهمست لوالدي:

– هل أنت متأكد من هذا الرجل؟ المكان مهجور... تماماً.

أجابها أبي بصوت مطمئن:

– جرجس سائق رسمي من الفندق. ورحلتنا مسجّلة ضمن جدول الرحلات.

أغمضت أمي عينيها للحظة، وتنهدت، كأنها تذكّرت أن هناك ورقة تثبت ذلك بالفعل... لكن القلق ظلّ يختبئ خلف ملامحها.

أرادت أن تُقنع نفسها، فابتسمت بتكلّف، فردّ أبي بنبرة مرحة:

– وهل تظنين أن تلك الساعات التي قضيتها في نادي بناء العضلات ستذهب هباءً إذا قرر السائق سرقتنا؟

رمقته بنظرة تهكّم، وقالت:

– لقد كانت زيارة يتيمة... يومٌ واحد فقط، ونمت أسبوعاً في الفراش بسبب التشنجات.

ضحكا. حتى أنا ضحكت. وأختي لم تفهم، لكنها ضحكت معنا.

بدأنا نسير خلف جرجس عبر طريق مائل ينساب بين صخور باهتة.

لسنا في قمة الجبل بعد، بل قريبين منها، على ارتفاع يقارب المئة وعشرين متراً، في مستوى مرتفع.

الجبال ساكنة، والهواء ساكناً... كل شيء حولنا بدا كأنه يتنفس بهدوء ثقيل.

ثم توقف جرجس، وانحنى ليلتقط عصاً خشبية قديمة ملقاة على الأرض، نفض عنها الغبار، وأشار بها إلى جزء من الجدار الحجري:

– هذا الجزء تعرّض لانهيار سنة 1960، قبل 28 عاماً. لا أحد يهتم بهذه المنطقة، لكنني أردت أن أريكم إياها أولاً.

اقتربنا. رأيت جداراً صخرياً مشقوقاً، لكن ليس كأي شق.

الشق بدا كأنه ضُرب بعناية. لا تشققات عشوائية، بل زاوية حادّة... منتظمة.

قال جرجس وهو يمرر طرف العصا على الحافة:

– انظروا هنا... هذه ليست تآكلات طبيعية. هذه ضربات. يبدو أن أحدهم أجرى عمليات حفر خفيفة، خلسة... ربما منذ سنين. تشبه آثار الفؤوس، لكنها أدقّ.

انحنى والدي أمام الجدار، وبدأ يتفحّص الزاوية بتمعّن.

ثم سحب من حقيبته دفتراً صغيراً، مزّق منه ورقة، وبدأ يتحرّك بها على طول الجدار، يثبتها تارةً بمساعدة الحجارة، وتارةً يطلب منّا أن نعيد الإمساك بها في مواضع مختلفة. يقيس الميل في ثلاث نقاط متباعدة على امتداد الخط الصخري، كمن يبحث عن اتساقٍ رياضي لا يعرف إن كان موجوداً فعلاً.

بعد دقيقة من الصمت، قال:

– الميلان هنا واضح... قريب من 30 درجة.

ثم تردد، كأن فكرةً بدأت تتشكل في ذهنه، وقال:

– هذا الميل يشير إلى أن البنية، إن كانت موجودة، تتسع كلما صعدنا. أي أنها أعرض في الأعلى منها في الأسفل...

ثم تراجع خطوة إلى الوراء، حدّق في الجدار، وأضاف:

– لو افترضنا أن هذا الضلع يمتد من رأس هيكل ما حتى هذا الارتفاع... فطوله سيكون بحدود 150 متراً.

رفعت أمي حاجبيها:

– وماذا يعني هذا؟

ردّ بصوتٍ أبطأ، كمن يرسم شيئاً في ذهنه:

– هذا يعني أن الرأس قد يكون مدفوناً في أعماق الجبل... وأننا نقف الآن عند حافة قاعدةٍ عريضة.

ثم انهمك في حساباته، يرسم خطوطاً على الدفتر، ويقيس الزوايا بأصابعه، ويقارن بين المدى والارتفاع، ثم تمتم:

– الطول الكامل للقاعدة سيكون بحدود 190 متراً... إن كان هذا فعلاً ضلعاً من هيكل ما..

ثم نظر حوله، ببطء، وقال:

– هذا المستوى من الجبل... يُمكن أن يخفي بسهولة قاعدةً ضخمة لبناء مدفون... لو كانت موجودة.

وهنا... جاء صوت جرجس من الخلف، ناعماً، لكنه جافٌ كالصخر:

– الهرم... المقلوب.

تجمّدت اللحظة.

تجمّد الزمن.

توقفت أنفاسي.

كأن تلك الكلمة لم تُقل... بل طُعنت في المكان.

شعرت بشيءٍ داخلي يرتجف.

نظر أبي إليه، وعيناه ضيّقتان، وقال بصوتٍ حادّ، لكن منخفض:

– ماذا قلت؟

لم يردّ فوراً. كمن أدرك أنه قال ما لا يجب قوله.

نظر إلينا، ثم إلى الجدار، ثم إلى لا شيء:

– آسف... ربما مجرد خرافة.

اقترب منه أبي:

– أي خرافة؟

تنفّس جرجس ببطء:

– جدّي كان رجلاً بسيطاً. عمل مع بعثة بريطانية هنا، في بداية الأربعينات. كان نجاراً، يصنع الصناديق لأدواتهم. أخبرني ذات مرة... أنهم تحدثوا عن هرمٍ مقلوب، قالوا إنه بُني في زمن لا يُعرف، بيد بشرٍ لا نعرفهم... يتهامسون وكأن وجوده شرطٌ لوجود كل ما حوله. يقولون: لولا هذا الهرم، لما استقامت الحضارات... ولا معنى لكل ما بُني فوقه. جدّي لم يفهم شيئاً، قال إنهم يتحدثون بالألغاز... لكنهم كانوا خائفين، رغم أنهم لم يقولوا لماذا.

– شيء مثل ماذا؟

– لا أعلم. لم يُكمل القصة. فقط قال إنهم كانوا يتهامسون ليلاً، ويتجادلون حول رسمةٍ خفية، وقاعدةٍ مدفونة... وظلّ يكرّر: "ليس كل ما بُني ظهر... وليس كل ما دُفن طُمس."

ابتداءً من هذه اللحظة، لم يعد جرجس يبدو كسائق سيارة فندقية... بل بدا كأنه عالم آثار بالصدفة، رجل يعرف أكثر مما يقول، وكأن القدر جمع بيننا لسببٍ لا نفهمه بعد.

جلستُ على صخرة صغيرة، أفكّر في هذه المصادفة الغريبة التي جمعتنا... وهل كانت مصادفة فعلاً؟

واقفاً، يحمل عصاه كأنها امتداد لذاكرة قديمة، وينظر إلى الحجارة كما ننظر نحن... لكن نظرته كانت مختلفة.

كأنه دخل اللعبة فجأة، لمجرد أنه سمع جملة من جده... وكأنّ المكان نفسه يعرفه.

وبلا سبب، تذكّرتُ العجوز في محطة رمسيس. أردت أن أسأل أبي عنه، كيف ظهر، ومن يكون... لكن شيئاً ما ألجم لساني.

جلس أبي على صخرة منخفضة، وبدأ يرسم شيئاً ما في دفتره.

سألته، وأنا أحدّق في الصخور:

– هل يمكن لشيء أن يوجد... قبل الجبل نفسه؟

رفع رأسه:

– الجبل هنا، في المقطم، تشكّل من رواسب بحر قديم، اسمه بحر تيثيس. كان يغمر هذه المنطقة قبل ملايين السنين، ثم انحسر.

سألته أمي:

– وكم مضى على ذلك؟

قال:

– بين 50 و60 مليون سنة تقريباً.

هزّ جرجس رأسه بدهشة، وقال:

– يا إلهي... هل كان هناك بشر أصلاً قبل 50 مليون سنة؟

أجاب، وقد بدا عليه التردّد:

– بحسب العلم الحالي...

لا. أقدم إنسان عاقل نعرفه الآن عاش قبل نحو 100 ألف سنة. لكن آثاراً بشرية بدائية، تعود إلى ما يقرب من مليونَي سنة، وُجدت بالفعل... لكنها لم تكن لحضارة. مجرّد أدوات متناثرة... حجارة، لا مبانٍ.

أمي وهي تنظر إلى الزاوية الحادة:

– وإذا كانت هذه الزاوية فعلاً جزءاً من هرم مقلوب... فهذا لا يعني فقط وجود بناء... بل وجود من بناه، وفكّر فيه.

أجابها، كمن يغمغم أكثر مما يشرح:

– لو كانت هناك حضارة قديمة جداً، ثم غمرها بحرٌ لملايين السنين، ثم تراكمت فوقها طبقات، وتكوّن الجبل... فلن يتبقّى منها شيء على السطح.

ثم نظر إليّ:

– كل شيء فعلوه... سيكون مغطى... مثل هذا تماماً.

سأل جرجس، وهو لا يزال يحدّق في الصخور:

– ولكن... ماذا لو لم يتشكّل الجبل في قاع البحر أصلاً؟ هل أنت واثق من هذا؟

أجابه بثقة هادئة:

– بحسب ما يقوله الجيولوجيون، فإن طبقات المقطم مليئة بالأحافير البحرية. القشرة الكلسية، وتناوب الحجر الجيري والطفلة، كلها دلائل على بيئة بحرية ضحلة، كانت تغمر هذا المكان قبل 50 أو 60 مليون سنة. لا يوجد تقريباً أي رأي علمي ينكر أن الجبل تشكّل في قاع البحر القديم.

أمي، وكأنها تراجع معلومة قرأتها يوماً:

– لكن... ماذا عن الأمطار القديمة؟ أذكر أن بعض الباحثين أشاروا إلى أن شمال إفريقيا ربما كانت أكثر خصوبة قبل آلاف السنين... هل من الممكن أن تكون قد أحدثت تأثيراً مشابهاً؟

أجابها بعد تفكير قصير:

– الأمطار الغزيرة تركت أثراً على بعض التكوينات السطحية، نعم... لكنها لم تكن كافية لنحت أو تكوين طبقات رسوبية بهذا العمق والتراكم.

ثم أضاف، كمن يحاول فتح باب جديد للتأمل:

– لكن، إن افترضنا أن هذا الهيكل لم يكن قبل البحر، بل جاء بعده... فربما لم يُدفن، بل أُخفي.

نظرت إليه أمي بدهشة:

– ماذا تعني؟

– أعني أن الجبل نفسه يحتوي على كهوف طبيعية، وشقوق داخلية تكونت على مدى ملايين السنين... بعضها عميق بما يكفي ليُخفي بناءً كاملاً.

قال جرجس، وقد اقترب خطوة:

– وكأنهم لم يبنوه تحت الجبل... بل في قلبه.

أومأ أبي:

– بالضبط. قد يكونوا استغلوا الفراغات الجيولوجية، أو وسّعوها بهدوء... فصار الجبل غلافاً طبيعياً. غلاف لا يكشف شيئاً، ولا يمكن أن يُكتشف... إلا صدفة.

اقتربت من إحدى الزوايا البارزة، ومررت يدي فوق الخط.

قلت في نفسي، وأنا أتحسس الخط كأنني أتحسس خريطةً لشيءٍ لا أراه:

لحظة... هل نحن حقاً نصدّق هذا؟ مجرد خط على جدار حجري متهالك، وتحليل ميلان يدوي... وفجأة صرنا نتحدث عن هرم مقلوب مدفون تحت الجبل؟ أي جنون هذا؟

هل يعقل؟ كل هذا الحديث عن هياكل مدفونة، عن هرم مقلوب، ونحن في النهاية أمام شقّ واحد فقط... مجرد زاوية، قد تكون طبيعية تماماً.

لكن شيئاً في داخلي كان يهمس... لم يكن حجراً فقط.

بل هو أشبه بندبة... أو أثر جرح قديم.

شيءٌ ما هنا، لا يريد أن يُنسى.

لكنّه لا يريد أن يُكشَف... بسهولة.

كأنّ الصخور تنتظر من يفهمها، لا من يحفرها.

ثم، من خلف هذا الصمت المتأمل، تسلّل صوت غريب... خافت، كأن الريح تداعب شيئاً مجوفاً.

نظر جرجس حوله ببطء، ثم قال بنبرة منخفضة:

– الغريب... أن أحدهم ربما كان هنا قبلي.

لم يشرح، ولم نرد. كأن الجبل قرر أن يقول شيئاً... ثم تراجع.

نظرت إلى الجدار مرة أخرى، ومددت يدي نحو الزاوية.

الملمس مختلفاً قليلاً في هذا الموضع... أكثر نعومة، كأن أحدهم مرّ عليه مرات عديدة.

ثم مالت أمي للأمام قليلاً، وقالت بصوت خافت:

– هل سمعتم ذلك؟

لم يُجب أحد.

لكنني شعرت... أن شيئاً ما، أو أحداً ما، كان يستمع لنا من الداخل.

كانوا يحاولون كشف القلب بالحسابات والمنقاش وأوراق الرسم... لكن ربما، فقط ربما، هناك شيء هنا يمكن رؤيته دون هذا كله. شيءٌ لا يُقاس... بل يُلتقط. لا يُبرهن عليه... بل يُحَسّ.

وكأنني... كنت أعرف هذا المكان، حتى قبل أن أصل إليه.

# الفصل السادس: الكلمات التي سبقتنا

تراجعنا عن الجدار الحجري الذي توقفنا عنده في الممرّ الأول، لكن لم يكن فينا من شعر أن الرحلة انتهت.

كان الصمت أكثر حضوراً من أي كلام، كأن الجبل لم يقل كل ما أراد قوله بعد.

فتح جرجس باب السيارة، ثم استدار إلينا بهدوء، وقال بصوتٍ متأنٍ:

– هناك مكانٌ آخر... يشبه ما وصفه لك صديقك أكثر. ليس بعيداً عن هنا، لكن لا أحد يقصده عادةً. كأنه لا يريد أن يُزار.

لم يعلّق أحد. صعدنا جميعاً، وما إن بدأت السيارة تشقّ طريقها نحو الانحدار، حتى مدّ جرجس يده إلى جهاز الهاتف المثبّت إلى جانب المقود، ورفع السماعة السوداء الثقيلة، ضغط رقماً قصيراً وانتظر.

– مساء الخير... هنا السيارة ٨٢٢. نحن الآن متجهون إلى النقطة الشرقية من المقطم، عبر المسار الداخلي رقم ٣.... نعم... الأرض وعرة بعض الشيء، والمنطقة خالية..... فقط أردتُ تسجيل الموقع في حال حدوث أي طارئ.

أنهى المكالمة، وأعاد السماعة إلى مكانها.

يبدو هذا طبيعياً... مجرّد إجراء احترازي لتسجيل الموقع.

لكن شيئاً داخلي ارتجف.

لم يكن الأمر فقط لتطمين الفندق، بل بدا كـ رسالة غير مباشرة... كأنّه أراد أن يكسب ثقتنا المطلقة، لا ليطمئننا، بل ليهيّئنا.

لا لأنّ الطريق خطر... بل لأنّ ما نحن مقبلون عليه ليس طريقاً. بل عتبة.

عتبةٌ تفصل بين ما كنّا نعرف، وما لن نعرف بعد الآن.

خطوةٌ قادمة لا رجعة منها... لا يكفي أن تعبرها، بل عليك أن تؤمن بها.

وكأنّه يقول دون أن يتكلم:

"لا تخافوا من الطريق... لا تخافوا مني. هذا هو الوقت الذي يجب أن تُغلقوا فيه كل أبواب الشك. انسَوا أيّ مخاوف جانبية... ما هو قادم، أهمّ من أن يُساق إليه بالخوف. أنتم... في أيدٍ أمينة."

توقّفنا عند فجوةٍ بين صخرتين كبيرتين، لا لافتة تشير، ولا أثر يدل.

أشار نحوها، وقال ببساطة:

– من هنا.

دخل أولاً، منحنياً، بخطى واثقة.

تبعناه واحداً تلو الآخر، والصمت يسير معنا.

ندَبت الصخور نفسها لتفتح لنا ممراً لا يتّسع إلا لمن خفّت ذنوبه.

سقفٌ ينخفض كأنّه يسجد للعبور، وجدران كأنّها تحبس نفسها منذ قرون.

هواءٌ بلا صوت... لكنه ليس ساكناً، بل متربّص.

وفي نهاية الكهف، انشقّ الجدار عن فتحة مربّعة... لم تُنحَت لتُفتح، بل لتُخفى.

وعند تلك الفتحة... لم أدخل إلى سرداب.

بل شعرت كأنّ الجبل نفسه تنفّس، وفتح لنا شقّاً في صدره.

كلّ ما فيّ اهتزّ حين عبرت العتبة.

لا أعرف إن كنت أهبط... أم أتعمّق في شيءٍ كان في داخلي منذ البداية.

امتدّت الأرض الحجرية تحت أقدامنا ببرودةٍ مألوفة.

الجدران بلا زخارف، لكنها تتوهّج بلونٍ لا لون له.

الضوء لا يأتي من مصباح، بل من داخل الجدار نفسه... كأنّ الحجر يتذكّر الضوء الذي نسيه العالم.

تقدّمتُ، يدي ترتجف، ثم صحتُ دون أن أشعر:

– هذا هو! هذا هو المكان! أقسم أنني رأيت هذا الجدار! وهذه اليد! والضوء... من الحجر!

تقدّمت أمي نحوي، لم تتكلم، لم توبّخني.

بل فقط... رمقتني بنظرةٍ سريعة، قصيرة، لكنها كانت كافية.

رمشةُ عينٍ واحدة، فيها أكثر من ألف كلمة.

ثم تذكّرت.

جرجس لا يعرف عن الحلم شيئاً.

هو يظن أن أبي وصف له هذا المكان كما سمعه من صديق... لا أكثر.

أما والدي، فتقدّم نحو نهاية السرداب، حيث الجدار.

لم تكن نهايةً، بل بداية.

وفي منتصفه... كانت اليد.

منحوتة في الحجر، تمسك بهرمٍ مقلوب.

كأنها تغرزه في الأرض، أو تنتزعه منها.

الفعل كان جارحاً... لا رمزيّاً.

أما جرجس، فظلّ واقفاً بصمت.

لا يندهش. لا يتراجع.

بل بدا كأنه واقفٌ في بيته... أمام شيءٍ يعرفه جيداً.

حاول والدي تفحّص النقوش.

اقترب من الجدار، رفع مصباحه اليدوي، وراح يُمرّر ضوءه ببطءٍ على السطح الحجري، كمن يقرأ فصلاً طُمست كلماته تحت الغبار.

الرسم مألوفاً... كما في الحلم. لكنّه لم يكن مطابقاً تماماً.

الآن، أراه بوضوحٍ أكبر. تفاصيل لم تُرَ من قبل بدأت تتّضح.

كأنّ الحلم كان مجرّد ظلّ لما هو محفورٌ هنا...

وهنا فقط، بدأ الشكل يُفصح عمّا كان يهمس به هناك.

في الأعلى، هرم مقلوب، تمسك قمّته يدٌ بشرية منحوتة بدقة.

أسفله مباشرة، عين نصف مفتوحة، كأنها لا ترى... بل تتذكّر.

إلى جانبها، ثلاثة خطوط عمودية، تنهمر كأشعة، لكنها لا تنير، بل تُظلم ما تمرّ به.

ثم جسدٌ بشري مكوّر، أشبه بجنينٍ في وضعية النهوض... لا الموت.

وفي الزاوية العليا، قرص شمس يدور بعكس مساره، تتبعُه طيور منقلبة، كأنها تهرب من دورة زمنية خُدعت بها.

كلّ هذا بدا كأنه يحكي شيئاً... لا عن الماضي، بل عمّا لم يأتِ بعد.

ثم، وتحت هذا المشهد المعقّد، لمح والدي سطراً آخَر محفوراً بلطفٍ على شريطٍ أكثر نعومة من بقية الجدار.

خطّ مقلوب... لا يشبه الكتابات التقليدية، لكنه أكثر وضوحاً.

كأنّ أحدهم جاء لاحقاً، وأراد أن يُترجم المعنى لمن لا يفهم الصور.

همس أبي، وهو يتأمل:

– ليست هيروغليفية تقليدية... بعض الرموز تشبه أنظمة قديمة، لكنها مقلوبة...

وفجأة، ومن دون سابق إنذار... تكلّم جرجس.

لم ينظر إلينا. لم يلتفت.

فقط نظر إلى الجدار، وتدفّقت الكلمات منه كأنها كانت تنتظره:

"إن لم يُقلب الهرم، فلن يُبعث الإنسان.

وإن ظننتم يوماً أنكم بلغتم ذروة الحضارة...

فستكونون قد صعدتم إلى قمة ما صنعته أيديكم، لا إلى قمة أنفسكم.

وما ستظنونه مستقبلاً... سيكون ماضياً نُسي.

وما ستتوهّمونه نهاية... لن يكون إلا بداية لم تُكتب بعد."

تجمّد الزمن.

والدي همس، كمن تذكّر فجأةً صوتاً قديماً:

– هذه... نفس الكلمات.... قالها العجوز... في محطة رمسيس.

ثم استعادها، وهو يمرّر يده في الهواء أمام النقش...

كمن يتحسّس أثراً لا يريد أن يُفسده باللمس.

كأنّ الكلمات تستعيد نفسها من الحجر، لا من الذاكرة.

"نحن نظن أننا نعيش ذروة الحضارة،

نقيسُ تقدّمَنا بعددِ الأقمارِ الصناعيةِ وعددِ الطوابقِ في ناطحاتِ السحاب،

لكن ماذا لو لم نبلغ قمة الإدراك قط؟

ماذا لو كنّا قد بلغنا ذروة الآلة فقط،

بينما وعينا الحقيقي بدأ بالتآكل منذ آلاف السنين؟

قد لا نكون في قمّة الإنسان، بل في قمّة ما اخترعه الإنسان..."

ثم أضاف بنبرةٍ مشوبة بدهشة الاكتشاف، كمن رأى المعنى يتكشّف أمامه فجأة:

– لم تكن كلماته... لقد كان فقط ينقلها.

قالت أمي، بصوتٍ لم أسمعه منها من قبل... صوت خافت، لكنه مشبع باليقين:

– نقلها من هنا.

تردّدت لحظة، بعينيها تُفكّكان المكان... كأنها لا ترى الجدار، بل الزمن المحفور فيه.

ثم أضافت، بصوتٍ أكثر بطئاً... وكأنّها تنطق بالحقيقة لأول مرة:

– هذه ليست جملة عابرة، ولا نقشاً تقليدياً... بل نبوءة. نُقشت في قلب الصخر، منذ آلاف السنين.

غارت رعشة صامتة في صدري، وأنا أرى جرجس ينظر إلى الجدار... بعينين لا تنظران إليه، بل من خلاله.

ثم... تذكّرت تلك الهمسات في الفندق...

صوت أمي وهي تهمس في الغرفة المجاورة.

جملةٌ واحدة ظلت ترنّ في أذني كصرخةٍ لا تموت:

– "والدك قُتل في روما... ولا أحد حتى الآن يجرؤ أن يقول لماذا."

هل... من الممكن؟

هل جدي قُتل لأجل هذا؟ لأجل هذا المكان؟

هل مات لأنّه كان يعرف؟ لأنّه اقترب أكثر مما ينبغي؟

انتابني يقينٌ جارف... أن جرجس لم يكن وحده.

وأن هذه الرحلة، منذ اللحظة الأولى، لم تكن مصادفة... بل بدا كل شيء فيها كأنّه مُخطّط له بإحكام.

هذه لم تكن رحلة عبثية.

وربما لم تبدأ من الفندق إلى الجبل...

بل من بيتنا في لندن، إلى كلّ هذه الأرض التي نطأها الآن.

الشكّ بدأ يعصف بي...

من هو جرجس؟

بل من هو أبي؟

من كان جدّي؟

وللحظة...

شعرت كأنني وُلدت لتوّي في عائلةٍ لم أعرفها من قبل.

عائلةٌ لم تُظهر وجهها الحقيقي... إلا الآن.

رفع والدي رأسه، ونظر نحو جرجس مباشرة،

كمن استعاد حديثاً لم يغادره:

– كنت قد ذكرتَ في الطريق... مشروع ديرٍ سيُبنى هنا... في هذا الجبل.... هل هذا هو المكان؟

لم يتردد جرجس. بل قالها بثقة، وابتسامةٍ واحدة...

ابتسامة أخرجته تماماً من قالب سائق فندقي، إلى هيئة رجلٍ يعرفنا أكثر مما نظن.

– ليس بالضبط في هذا المكان... لكن حوله... وحين يُبنى... سيُخفي كل شيء.

ثم نظر إلى الجدار، بعينين لا تنظران إليه... بل من خلاله.

تقدّم والدي خطوة واحدة نحوه...

نظر في عينيه مباشرة، كأنّه يحاول أن يقتلع الحقيقة منه اقتلاعاً.

– هل كان هنا؟

هل مرّ العجوز من هذا المكان؟

هل... تعرفه؟

لم يُجب.

فقط... ابتسم.

تلك الابتسامة لم تكن ودودة.

بل كانت... اعترافاً.

# الفصل السابع: أوصياء آسيريا

لم يكن الجدار هو النهاية.

ولا كانت اليد التي تمسك بالهرم المقلوب سوى إشارة أولى لما لم نُدرِك بعد.

منذ تلك اللحظة، صار الزمن داخلي مشوَّشاً، كأن الممرّ الذي دخلناه لم يكن تحت الجبل فقط... بل تحت الجلد.

جرجس ظل واقفاً أمام الجدار، لا يتكلّم.

وشيئاً في ابتسامته... في ثبات نظرته يقول أكثر من ألف كلمة.

انهارت نظرات أمي في لحظة،

كأن شيئاً ما انكسر في داخلها حين أدركت أن جرجس لم يكن سائقاً غريباً... بل يعرفنا.

نظرت إليّ بعينين يتقاطع فيهما الخوف والخذلان، ثم أمسكت بيدي بعنفٍ مفاجئ،

لا كأم... بل كمن يُنقذ ما تبقّى من عالمه.

ثم قالت بنبرة مرتجفة، تكاد تكون همساً:

– اخرجوا من هنا... الآن... بسرعة.

سحبتني، وأمسكت بأختي، ثم اندفعت تعود بنا عبر الممرّ ذاته الذي دخلنا منه، تتحسّس خطواتها كمن يهرب من شيء لا يُرى... لكنه يتنفّس خلفه.

أختي تتلعثم، تنظر إليّ بعينين ممتلئتين بالفزع، وتسألني دون صوت: ماذا يحدث؟

لكني لم أكن أملك جواباً... فقط ركضت معها.

– أمي؟ ماذا هناك؟

– هيا! بسرعة! تمسّكا بي ولا تلتفتا!

والدي صاح من خلفنا:

– ماذا تفعلين؟!

لكنه لحق بنا.

ووراءه... كان جرجس.

ركضنا عبر الممرّات الضيّقة، والهواء من حولنا صار أثقل، كأن الجبل يضيق خلفنا، ويقفل ممراته ببطء.

الظلال بدت أطول مما ينبغي، تتسلّل خلف أقدامنا بصمتٍ متربّص.

وحين بلغنا الفتحة الحجرية، واصطدمت وجوهنا بنفحة هواء نقي لم نشعر به منذ دخلنا، توقفنا.

ليس لأننا تعبنا...

بل لأن شيئاً كان ينتظر عند العتبة، ساكناً بصمتٍ غير عابر،

حضورٌ بدا كأنه ظلّ واقفاً منذ اللحظة الأولى... يترصّد.

كأنه لم يكن يراقب خطواتنا، بل يترقّب بلهفة نتيجة اختبارٍ خضناه للتو.

هناك، أمامنا تماماً، عند فوهة الكهف...

وقف رجل. لم يكن غريباً عنّا.

بل كان هو العجوز ذاته، ذلك الذي رأيناه في محطة رمسيس، بهيئته نفسها...

يحمل العصا الغريبة نفسها، المُزيّنة بالنقوش ذاتها التي كنّا نتأمّلها قبل لحظات داخل الممرات.

تجمّدت أمي في مكانها، شدّت على يدي بقوة، ثم دفعتني خلف ظهرها بحركة حاسمة،

كأنها كائن تُحرّكه الحواس لا العقل،

كأنها أنثى ذئب استيقظت في عروقها حاسة الخطر،

وفصلتني عن العالم كما يفعل الجسد مع قلبه حين يستشعر الطعنة.

وللحظة، خُيّل إليّ أني سمعت زمجرةً خافتة تنفلت من صدرها،

صوتٌ داخلي خرج كنبضةٍ صوتية غريزية... لا صوتاً بشرياً، بل صوت شيء أقدم، أعمق...

غريزة لا تُفكّر، بل تسبق التفكير...

حاسّة فطرية مدفونة في أعماقها، تنهض من تلقاء نفسها حين تلامسها ظروف معيّنة،

كأنها مبرمجة على الاستيقاظ فقط عندما يشتدّ الخطر إلى الحدّ الذي لا تنفع معه الكلمات.

– من أنتم؟ ماذا تريدون منا؟

ثم سمعت صوت أنفاس أبي خلفنا، ثقيلة... متوترة،

كأن شيئاً في داخله استيقظ هو أيضاً، لا يشبهه في عادته، ولا ينتظر إذنه ليتحرّك.

التفتُّ فرأيت جرجس يقف خلفه تماماً، ساكناً كظلّ لا يعكسه الضوء.

عندها، مدّ أبي يده إلى حقيبته، وأخرج سكيناً شبه صدئة، صغيرة الحجم، لم تفارقه منذ دخلنا مصر... مثل تلك التي يحملها باحثو الآثار بحكم العادة، لا بحكم الحاجة، وكأنها جزء من الدور الذي قرّر أن يعيشه.

ثم استدار بخفّة خاطفة، وأطبق على عنق جرجس،

للحظة تهيئ لي أن في داخله نمِراً خائفاً،

لا يهاجم ليفترس... بل ليحمي...

ليرسم خطاً فاصلاً بينه وبين التهديد.

غريزة لا تُفاوض. فقط تُنذر.

– إن لم تشرحا ما يحدث الآن... أقسم أنني سأقتلك!

ثم التفت إلى أمي، وصوته يحمل حدة لم أسمعها منه من قبل:

– اذهبي إلى السيارة، أديري المحرّك فوراً، وخذي الأولاد معك. وإن لم ألحق بكم خلال دقائق... لا تنتظري. ارحلي دون أن تلتفتي.

لم يتحرّك العجوز، ثبت مكانه كأن الزمن لا يعنيه،

وحدها عيناه تحرّكتا، تحملان نظرة استخفاف باردة، وابتسامة صغيرة لم تكتمل...

ثم انسابت من بين شفتيه كلمات كأنها لا تنتمي إلى اللحظة، بل تسبقها بخطوة:

– سوف تتسبب بمقتلهم جميعاً... تماماً كما تسبب والدك بمقتله.

تجمّد والدي.

تلبّدت السماء بلونٍ لا لون له.

قال العجوز بصوتٍ فيه نبرة ندبة قديمة، كمن يستدعي شيئاً أثقل من الذاكرة:

– ما حدث داخل هذا الكهف... لم يشهد أوصياء آسيريا مثله من قبل، سوى مرة واحدة فقط... حين دخله والدك... وها هو يحدث أمام عيني... للمرة الثانية... ياللعجب.

تقدّم أبي خطوة، ولا تزال يده تطبق بقوة على عنق جرجس،

كأن الغريزة التي أيقظته لم تسمح له بعد أن يتراجع.

نظر إلى العجوز بعينين تضطرب فيهما الريبة والغضب،

وقال بصوتٍ متوتر يشقّ الصمت:

– ماذا تعني؟ ما الذي يحدث؟ وضّح كلامك!

قال كلماته تلك، وكأن الكلمة الأهم فيما قاله العجوز مرّت على سمعه دون أن تترك أثراً...

"آسيريا".

لكنني سمعتها بكل وضوح.

شعرت بها ترتدّ في رأسي كصدى بعيدٍ أعرفه ولا أتذكّره،

كأنها لم تكن اسماً غريباً، بل مألوفاً على نحوٍ مربك،

كما لو أنها كانت يوماً جزءاً من ذاكرة لا تخصني... لكنها تسكنني.

باغتنا العجوز بسؤال حاد:

– من منكم... رأى هذا المكان في ذاكرة لم يعشها؟

تقدّمت أمي خطوة، كمن تحاول أن تُبعدني عن الخطر بجسدها قبل كلماتها،

تحميني بالكذب، وتدفع الحقيقة عنّي قبل أن تصل.

ثم صرخت بانفعالٍ متوتر:

– أنا... أنا من رأته!

ضحك العجوز، ضحكة يقين أكثر منها سخرية:

– مستحيل... يجب أن يكون أحد أبنائه.

وأشار برأسه إلى أبي، كأنما يشمله... ويشملني أنا وأختي معه، دون أمي،

كما لو أن هناك شيئاً يسكن في دم عائلة أبي، سرّاً لا ينتقل بالزواج...

بل يولد فقط مع من جاء من صلبه.

خرجت من فم جرجس بضع كلمات مشروخة، ممزوجة بأنفاسٍ متقطعة، قبل أن يُحكم أبي قبضته أكثر ويضغط الأداة الحادة على جلده.

رأيت خيطاً رفيعاً من الدم يسيل من رقبته، ومع ذلك... تفلّتت الكلمات بصعوبة، كأنها تحارب لتُقال:

– هو... الولد... قالها... بنفسه... الكهف... "رأيته بالحلم"...

ثم اختنق صوته تماماً، وسقط الصمت كأن أحدهم أغلق الباب على ما تبقّى.

تقدّمتُ خطوة، وعلى غير المألوف... لم أكن خائفاً تماماً.

كأن شيء في داخلي، ساكن وواضح، يهمس لي بأن لا داعي لهذا الفزع...

كأنّ جسدي تذكّر أمراً لم يخبرني به بعد.

– ماذا تريد منا؟

نظر إليّ العجوز طويلاً:

– هذا منطقي. أنت تحمل نفس عيني جدك.

ثم التفت إلى أمي:

– لا يمكن أن تكوني أنتِ. كونكِ الأم فهذا لا يمنحك جيناتهم... ولا ذكرياتهم.

ثم التفت إلى أبي، بصوتٍ أكثر هدوءاً، كأنّه يحاول أن ينزع السمّ من الهواء:

– كما ترى... أنا رجل عجوز.

ثم أضاف بنبرة فيها شيء من الذكرى:

– لكنني... بريطاني مثلك. أو هكذا كنتُ يوماً ما.

نظر إلى يدي أبي وهي لا تزال تطبق على عنق جرجس، وتابع:

– لا داعي لأن تهدد سلامة ابني أكثر من هذا.، فلو أردنا أذيتكم... لفعلنا ذلك بطريقة مختلفة.

رفعت أمي نظرها نحوه ببطء، وكأن شيئاً ما في كلمات العجوز اخترق الصورة التي كانت تظنها ثابتة.

نظرت إلى جرجس، ثم إلى العجوز، ثم عادت ببصرها إلى أبي...

تجمّدت ملامحها للحظة، كأنها تحاول أن تُعيد ترتيب العالم في رأسها.

جرجس؟ ... ابنه؟

الدهشة لم تنطق، لكنها ارتسمت في عينيها كصفعة صامتة.

أما أبي... فتوقّف.

أدار نظره من حوله، كأنّه يرى المكان للمرة الأولى بعيون الفطرة... لا بعين العقل وخوفه من المجهول.

لم يكن هناك أحد سوانا. لا كمين، لا سلاح، لا مخرج سهل إن ساءت الأمور.

كل ما حوله يهمس بالحقيقة التي لم يكن يريد تصديقها:

لو أرادوا إيذاءنا... لفعلوا ذلك منذ لحظة وصولنا إلى هنا.

خفض يده ببطء، وأفلت عنق جرجس.

كأنّه أفرج عن شيء أكبر من رجل...

عن احتمال لم يكن مستعداً لمواجهته.

خفّ التوتر فجأة، وتسرّبت إلى الجوّ نبرة غريبة من الهدوء...

فالجميع أدرك، ولو بصمت، أن هذه المواجهة لم تكن ساحة قتال.

نظر إليه أبي مباشرة، وكأن صبره قد نفد:

– كفى غموضاً... قل كل شيء، دفعة واحدة.

رفع العجوز عينيه نحوه ببطء، وفي نظرته بريق إعجاب خفي، ثم قال بنبرة شبه مُبتسمة:

– تماماً كطبع والدك... كان يواجه الحقيقة كما هي، لا يحبّ أن تُروى على جرعات، يطلبها دفعة واحدة، كأنها جدار يُهدم بضربة، لا كأنها شبكة معقدة من الخيوط... تحتاج الوقت، والكثير من الصبر.

تنفّس العجوز ببطء، وبدأ يشرح باسترسال... دون توقف:

– هذا المكان... وجده آخرون غير أبيك. علماء، مستكشفون، وباحثون مرّوا به كما يُمرّ على صدفةٍ في الرمل. لكن أباك... كان الوحيد الذي تعمّق فيه كما لم يفعل أحد. تفاعل مع المكان بطريقة لم أرَ مثلها في حياتي. لم يكن يستكشفه... بل كان يسترجعه.

ثم التفت إليّ، وقد خفّ التوتر في صوته:<br>– تماماً كما فعلتَ أنت.

صمت لحظة قصيرة، كأنّه يمنح للكلمات أن تستقر، ثم قال بنبرة حاسمة:
– ولهذا السبب... فإنهم لن يتركوكم، مهما حدث.

ارتفع رأس أبي فجأة...

كأنه للمرة الأولى ينتبه للكلمة التي نطقها العجوز من قبل... "أوصياء آسيريا."

نظر إليه، وسأله بصوتٍ أكثر تماسكاً، لكنه يحمل قلقاً دفيناً:

– من هم؟ من تقصد؟

أجابه العجوز بنبرة لا مجال فيها للغموض:

– أوصياء آسيريا... جماعة سرية لا تعرف وجوهاً، ولا تعترف بالأسماء، موجودون منذ قرون، وربما أكثر. مهمّتهم الوحيدة: حماية أسرار الحضارة القديمة، حضارة آسيريا.

قالها العجوز بهدوء، وعيناه لا تزالان ثابتتين في مكانٍ بيننا، كأنّه يرى شيئاً لا نراه:

– لكنهم لا يعرفون ما يحمونه. لا يفهمونه. يرثونه فقط... كما يرث الطفل قفلاً بلا مفتاح.

ثم أضاف، وصوته ينخفض كمن يقول حقيقة لا يحبّ أن يصدقها:

– تحرّكهم الإشارات، لا الفهم. يحرسون المواقع التي وُصِفَت لهم، غير آبهين بفهم ما يحرسونه.

نظر إلى الجدار خلفنا للحظة، كأن الكلمات لا تخرج من فمه... بل من الحجر نفسه:

– وكلما اقترب أحد أكثر مما ينبغي... أُزيل.

عاد بنظره إلى أبي، وقال بنبرة فيها أثر من الذكرى الثقيلة:

– والدك؟ لم يكن أول من اقترب... لكنّه كان الوحيد الذي تفاعل مع المكان حقاً... لم يدرس الجدار فقط، بل شعر به...

صمت لبرهة، كأنّه يسترجع مشهداً لم يفارقه، ثم أضاف:

– كان يتحسّس النقوش كأن جلده يتذكّرها، وكان يرى... لا بعينيه، بل بشيءٍ آخر يسكن داخله.

ثم رمقني بنظرة حادّة، كأنّه يتحدث عن جدّي... ويقصدني:

– كلّما اقترب من المكان، أو تفاعل معه بجسده أكثر، تفجّرت فيه حواسٌ لم تكن كباقي البشر... أكثر دقّة، أكثر صفاء... كان يسمع الهامس في الصخر... ويصمت، لأنه يفهم.

ثم أضاف، ونظره ما يزال موجّهاً إليّ، كأنّه يرى داخلي شيئاً لا أراه:

– تماماً كما حدث معك... حين رأيت النقوش على العصا لأول مرة في محطة رمسيس... ربما لم تنتبه لها حينها، لكن ذاكرتك التي لم تعشها... التقطتها قبل أن تفهمها... فبعض الحواس لا تُستَحضَر... بل تستيقظ وحدها، حين يهمس لها ما يُشبهها.

ثم نظر إلى الأفق البعيد، وأضاف بصوتٍ منخفض، كمن ينطق بالخاتمة:

– وعندما أدركوا أن المكان قد ردّ عليه... قرروا أن يتخلّصوا منه. كعادة البشر حين يعجزون عن الفهم، يخشَون ما لا يُفسَّر، ويعَادون كلّ ما لا يُشبههم... فكان الخوف أسرع من الحكمة، وكان القرار إقصاء النور قبل أن يفضح الظلام.

تنفّس ببطء، ثم قال بنبرة ثقيلة:

– لم يقتلوه هنا... بل استدرجوه إلى روما... لم يكونوا ليرتكبوا حماقة قتل باحث بريطاني على أرض مصرية ويثيروا الشكوك... إنهم أذكى من ذلك بكثير... جماعة ورثت خبرة قرون، تتحرّك بهدوء، ولا تترك خلفها سوى الصمت.

ثم أضاف، وصوته يزداد عمقاً وثقلاً:

– لم ينتهِ الأمر بموت جدّك... بل بدأ بعده... أشياء غريبة بدأت تحدث في مواقع مختلفة، كأنّ نبوءة قديمة استيقظت.. حينها قرّرت أن أحضركم إلى هنا... لا لأكشف لكم شيئاً، بل لأحميكم... ولأساعدكم... على أن تحموا أنفسكم.

توقّف العجوز عن الكلام، وساد صمتٌ كثيف...
لكنّه لم يكن صمت النهاية،
بل صمت ما قبل الانكشاف.

أما أنا، ففي داخلي لم يكن الخوف هو السائد،
بل شعورٌ غريب، كأن شيئاً ما استيقظ في دمي،
لا أعرفه... لكنه يعرفني.

ولأول مرة، شعرت أنني لست هنا لأفهم...
بل لأتذكّر ما لم أعشه قط.
شيء ما في داخلي بدأ يتحرّك...
حاسّة لم أتعلمها، لكنني وُلدت بها.

وكنت أعرف، رغم أنني لا أملك تفسيراً لذلك!
أن لا شيء سينقذنا اليوم...
إلا ذكرياتي التي لم أعشها قط.

## الفصل الثامن: حضارة الحواس المنسيّة

بعد أن ساد الصمت، تحرّك العجوز ببطء، ونظر إليّ نظرة طويلة.

ثم، دون أن يقول شيئاً، مدّ عصاه نحوي...

كأنّه لا يزال ينتظر تأكيداً على شيء يظنّه، أو لعلّه يريد أن يرى إن كنتُ قادراً على فعل ما يعرف في داخله أنني قادر على فعله.

مزيّنة بالنقوش ذاتها التي رأيتها في الكهف... لكنها في هذه اللحظة، بدت وكأنها تتحرّك تحت جلدي.

تردّدت لحظة، ثم مددت يدي.

ما إن لامستُ النقوش حتى انزاح شيءٌ داخليٌّ من مكانه. لم يكن شعوراً ولا فكرة، بل رعشة عميقة انطلقت من ظهري، كأن شيئاً عتيقاً في داخلي نهض دفعةً واحدة.

دوار خفيف اجتاحني. شيء ما في توازني اختلّ فجأة، كأن الأرض تحرّكت دون أن تتحرك. رأسي مال قليلاً، لا إلى الخلف، ولا إلى الأمام، بل إلى الداخل. وشيء ما في عينيّ بدأ ينسحب من الصورة الظاهرة، كأنهما تبحثان عن شيءٍ آخر... خلف الضوء.

أغمضت جفنيّ. أو ربما أُغلِقا من تلقاء نفسي، كأن شيئاً ما في داخلي قرر أن يعزلني عن العالم الخارجي ليستكمل ما بدأه.

ثم... انفتح داخلي على مشهد لم أعرفه من قبل،

وكأنني خرجت من ذاتي دون أن أغادر جسدي.

قدماي تتحركان فوق أرضٍ ناعمة، لا تُشبه تراب الكهف، ولا بلاط المدن.

الأرض هنا ليست صلبة، لكنها ليست رخوة أيضاً. كأنها تنبض بهدوء.

كل خطوة تُثير تحتها صوتاً لا يُسمع،

لكنه يُحسّ في الجلد... لا كاهتزاز، بل كوشمٍ خفيف تُنقَش به الطريق دون صوت.

الهواء أثقل، لكنه أنقى.

لا روائح تُعرف، لكن الأنف يمتلئ بإحساسٍ لا تفسير له...

مزيج من حضورٍ خام، لا رائحة له، لكنه يأخذ شكلاً في الصدر.

أدور بعيني، لكن بصري ليس كما كان.

الأشياء لا تبدأ من حدودها. بل أراها من وسطها، من داخلها.

لا أدري إن كنت أراها فعلاً، أم أتذكّرها وأنا أحدّق فيها.

مرّت طفلة أمامي، بخطى هادئة. توقّفت عند جذع شجرة غير مألوفة، وضعت كفها عليه، ثم أغمضت عينيها لثوانٍ، وفتحتها ببطء.

لم تتكلم، لكن جملةً تسللت إلى داخلي:

"إنها نائمة... والجذور تحلم."

لم أنظر حولي بحثاً عن مصدر الصوت. لم أحتج لذلك. فالجملة لم تُسمَع... بل حدثت في داخلي.

ثم تحركتُ.

رأيت رجلاً يجلس داخل ما يشبه خلايا منحنية الشكل، يبنيها بهدوء غريب...

يداه تتحرّكان بثقة كأنهما تنفّذان أمراً أقدم من عقله.

لم تكن أحجاراً، بل مواد خفيفة الملمس، لا أعرفها... ومع ذلك، كنت أفهمها.

شعرتُ كأنني أعرف وظيفة كل قطعة، وكأنني أراقب شيئاً رأيته من قبل في حلم، أو في مكان لا أذكره.

لم أفهم كيف يحدث ذلك، لكنّي كنت أعرف... دون تفسير.

المجسمات تتكرر في نمطٍ لا يختل، والفراغات بينها محسوبة، كأنها وُجدت لا لتُملأ، بل لتتنفّس.

يعمل بصمت، لا يلتفت، كأن حواسه تعرف المكان قبله.

لا يقيس، لا يخطط،

فقط يمد يده... وتعرف القطعة من تلقاء نفسها أين تذهب.

وفي ساحة منبسطة قريبة، رأيت مجموعة من الناس يتحركون معاً في انسجام مدهش، كما لو أن كل واحدٍ منهم يعرف ما سيفعله الآخر قبل أن يفعله.

لم يتبادلوا كلمة، ولا إشارة.

يحملون أدوات غريبة، يضعونها في أماكن دقيقة، ثم يبتعدون، ليمرّ آخرون يكملون البناء دون أن يتوقف الإيقاع لحظة.

في مشهد يشبه رقصة صامتة...

لا قائد فيها، ولا بداية معروفة.

فقط حركةٌ تُبنى على إحساس جماعيّ، كأن أجسادهم موصولة بنظام واحد، يُوجّههم دون أن يُظهر نفسه.

ثم رأيت رجلاً لا ينظر إلى حيث يذهب، يسير بخطًى مستقيمة لا تُخطئ. عيناه مغمضتان، أو كأنهما غائبتان تماماً عن وظيفتهما، لكنه يغيّر اتجاهه فجأة، كما لو أنّه يشعر بطريقه دون أن يراه، يستجيب لنداءٍ لا يُسمع، ولا يُرى، بل ينبض في داخله.

على يميني، تجلس امرأة ساكنة، عيناها مفتوحتان على اتساعهما، لكنها لا تنظر إلى شيء.

الضوء من حولها يتذبذب كأنه يتشكّل.

أشكاله تتلوّن وتخبو كأنها تخاطبها بلغة لا عين لي على فهمها.

طفل يجلس على صخرة، لا يتحرك، لكنه يعلم تماماً من يقترب.

لا يلتفت، لا يتنفس بقلق، فقط تزداد شدة جلوسه حين يقترب جسد آخر من محيطه...

وكأنه يدرك حرارة النوايا قبل أن تنبعث.

أخرى تقف قرب بحيرة صغيرة، تغلق أذنيها بكفيها، وتبدأ بالاستماع.

ليست للماء، بل لاهتزازات الهواء فوق سطحه.

كأنها تسمع الترددات التي لم تصدر بعد...

والأصوات التي لم يحن أوانها.

حاولت أن أقترب من أحدهم، لكن شيئاً في جسدي تراجع قبل أن أخطو... كأن القرار لم يكن لي.

شيء في داخلي قال:

لا تفسد الحاسّة بالصوت.

وقفت في مكاني.

للمرة الأولى، أدركت أن الصمت ليس غياباً للكلام... بل لغة أعمق، تُقال حين تعجز الأصوات عن حمل الحقيقة، أو عن تفسير العالم من حولنا.

مشيت أكثر.

كلّ من أمرّ بهم يشبهون الناس... لكنهم ليسوا مثلنا.

لا أحد يهمس، لا أحد يشير، لا أحد يركض أو يصرخ أو يشرح.

ومع ذلك، كل شيء مفهوم.

كأنَّ هناك نغمة خفيّة، تهمس من داخل كل جسد إلى جسدٍ آخر، لا تُنطَق ولا تُرى... بل تُستشعر.

ثم تسرّبت إليّ قناعة لا أعرف من أين جاءت...

لا كفكرة خطرت، بل كذكرى عميقة نهضت فجأة من تحت وعيي.

شعرتُ، دون أن يخبرني أحد، أنني بينهم لست غريباً... وكأنني لم أدخل هذا العالم، بل عدت إليه.

وكأنني أفهم قوانينه لا لأني تعلّمتها، بل لأنني أستذكرها شيئاً فشيئاً،

كما يتذكّر الجسد رقصة كان يؤديها قبل أن تُنسى.

هنا، لا يُقاس الإنسان بما يملك، ولا بما يُجيد.

لا بالمال، ولا بالمهارة، ولا حتى بالمعرفة...

بل بما استيقظ فيه مما لا يُدرَّس ولا يُلقَّن.

المرتبة هنا لا تُمنح كشرف، ولا تُعلن كمنصب، ولا تُنال بالاجتهاد أو الإرث...
إنها اهتزاز داخلي، لا يُرى ولا يُقاس،
يأتيك حين تنضج حاسّة فيك، نداء لا يسمعه أحد سواك، ولا يُصدّقه إلا من تذوّقه من الداخل.

حين تستيقظ حاسّة فيك، لا يتغيّر مكانك... بل أنت الذي يتغيّر داخله.
كأنك تتحرّك لا على الأرض، بل عبر طبقات غير مرئية من الإدراك.
كأن الضوء لا يخرج من عينك ليفهم العالم، بل يدخل منها ليكشفك لنفسك.
وكل حاسّة تستيقظ، تفتح باباً جديداً للحقيقة... ليس لتراها، بل لتعيد تشكيل موقعك فيها.

بعضهم يتوقّف عند حواس محددة لا تتجاوز المألوف.
آخرون يصلون إلى حالات إدراك أعمق لا تُفسَّر بسهولة.
وهناك من تتجاوز حواسه حدود التسمية...
فتكفّ الحواس عن التقاطه، لا لأنه اختفى، بل لأنه لم يعد يُدرَك بالطرق التي نعرفها.
لا يغيب، بل يتحوّل إلى حضورٍ لا يُمسك،
كأن الجسد كان مجرّد مرحلة...
وحين استيقظت فيه كل الحواس، تجاوز الحاجة إليه ليكون.

رأيت من بينهم طفلاً يقف وحده، ساكناً، كأنّه في انتظار نبضٍ لم يأتِ بعد.
حين مدّ يده إلى الفراغ، تغير شيءٌ في الهواء حوله.
ثم خفّ الوهج، وتسرّب إلى جلده ضوءٌ خافت، كأنه يتذكّره.
شعرت أنني أعرفه...
بل أعرف ذلك الشعور الذي انتابه.
كأنني كنته، أو كنتُ سأكونه، أو أنه الحاسة التي ما زلتُ أبحث عنها في داخلي.

تقدّمت خطوةً، ومددتُ يدي إلى صخرةٍ منخفضة بجانبي. بدا سطحها بارداً في البداية، لكنّي شعرت بنبضٍ يتردّد منها نحوي، كما لو أنها تناديني.

ولأول مرة، شعرت أن وظيفة عينيّ لم تكن الرؤية... بل التذكّر.

كأنهما لا تنظران إلى العالم، بل تنبشان الذاكرة فيه.

هنا، حيث لا وقت، ولا لغة، ولا تعريفات... فقط حواس تستفيق.

هذا ليس زمناً آخر.

بل الذاكرة التي سبقت الزمن.

وبينما طال بقائي هنا، بدأ شيءٌ داخلي يهدأ.

لم أعد خائفاً، ولا مذهولاً.

فقط أشعر أن كل دقيقة تقضى، تفتح داخلي نافذة.

لم يكن أحد يشرح لي شيئاً، لكنّي كنت أفهم.

وكأن المعرفة لا تُنقل، ولا تُعلَّم، ولا تُلقَّن،

بل تُستحضَر من مكانٍ دفين في الوعي.

بدأت أدرك أن ما أراه ليس سحراً، ولا خيالاً، بل نظام إدراك مختلف...

عالم بُني على حواس لا نملك لها أسماء، لكنها هنا تُشكّل اللغة والمعرفة والسلوك.

ذلك الرجل الذي يبني المجسمات لم يكن يصمّم...

بل يتذكّر.

حركاته أشبه برقصة وراثية، كأن خلاياه تعرف مكان كل قطعة، كما تفعل النحلات حين تبني خلاياها دون مخططات، بل بإيقاع داخلي لا يُخطئ.

والمجموعة التي تتحرك بتناغم خارق؟

لم تكن تُنسّق أدوارها،

بل تتصرّف كما تفعل النملة حين تكون جزءاً من وعيٍ واحد، ينبض في الجميع دون كلمة.

والرجل الذي لا يرى طريقه لكنه لا يضلّ؟

كأنه يحمل خريطة لا مرئية، كما تفعل الطيور المهاجرة حين تعرف وجهتها دون أن تراها.

الطفلة التي لمست الشجرة لم تكن تتخيّل،

بل كانت تترجم صوت الجذور، كما تفعل الفيلة حين تُصغي للأرض بأقدامها،

وتلتقط النداء المخفي في أعماق التربة...

ذلك الذي لا يُنطَق، ولا يُسمَع، بل يُستشعر كحقيقة تُقال بلغة لا صوت لها.

والمرأة التي تراقب الضوء،

كانت ترى التردّدات التي تختبئ خلف الطيف، كما تفعل الحشرات حين تتواصل بلا صوت.

وتلك التي أغلقت أذنيها؟

لم تكن تهرب من الضجيج... بل تستمع لما لم يصل بعد.

لذبذبات الزمن.

كما تفعل بعض الكائنات البحرية، حين تلتقط تغير الضغط في الماء قبل أن يصل الزلزال، وتغادر المكان قبل أن تُولد الكارثة...

لا بالحدس، بل بحاسّة لم نعد نملكها.

لم أكن أفهم هذا، بل كنت أتذكّره.

وكأنني كنت أملك تلك الحواس... ثم فقدتها.

وتساءلت: كيف كان سيكون الإنسان... لو لم ينسَ؟

لو كان يشعر بمن أمامه دون أن يتكلم؟

لو قرأ الصدق في نبضات الآخر قبل أن يسمع كلماته؟

كيف كانت ستبدو الحياة... لو لم يكن بيننا لغة؟ بل صدى.

وفي تلك اللحظة، شيء ما في الأفق تحرّك...

لا صوت، لا ظلّ، فقط شعور يتكثّف كأنه يُمسك بي من الداخل.

استدارت رأسي ببطء، لا لأني أردت، بل لأن شيئاً أقوى من إرادتي همس لي بأن أنظر.

الهواء تبدّل، كأن صمت العالم تنفّس نغمة جديدة...

لم تُسمع، لكنّي شعرت بها تهتزّ في صدري.

وهناك، بين الأشجار المتباعدة، وقف فتى.

ساكن الجسد، حيّ النظرة.

وجهه لا يوحي بالعمر، كأن الزمن مرّ عليه دون أن يترك فيه علامة.

لم يتكلّم، ولم يبتسم. لكنه نظر إليّ كما لو أنّه يعرفني منذ قبل أن أُولد.

تلك النظرة؟

ليست فضولاً، ولا شكاً، بل شيء يشبه التعرّف...

كأنّه لمح أخيراً مَن يُكمل الصدى الذي ظلّ ناقصاً في داخله... كما لو أن حضوره لم يكتمل إلا بلقائي.

أدركت، دون أن يقول شيئاً، أن اسمه "أوريان".

ليس اسمه منطوقاً، ولا محفوراً، لكنه ارتجف في داخلي كما تهتزّ الذكرى القديمة حين تستيقظ.

نظراته لم تحمل سؤالاً ولا جواباً، بل تشبه مرآة ترى فيها ما لا تعرف أنك تخبئه.

شعرت للحظة أن كل ما رأيته في هذا العالم لم يكن سوى موجات تمهّد لوصوله...
كأن كل حاسّة استيقظت فيّ، كانت تهيّئني لأراه،
وكأن اللقاء به... لم يكن حدثاً، بل غاية كل ما سبقه.

لم يتقدّم، ولم أتحرّك.
لكن المسافة بيننا تقلّصت كأنها لم تكن.
وفي داخلي، صوتٌ لا يُشبه الصوت، قال:
ها أنت... وصلت.

ولأول مرة، شعرت أنني لم أعد زائراً لهذا العالم...
بل ذوبتني الحواس فيه حتى لم أعد أفصله عن نفسي.
كأنني لم أدخله... بل انضممت إلى وعيه.
ولم أُولد فيه من جديد، بل تذكّرت أنني كنت دوماً جزءاً منه.

# الفصل التاسع: عالق بين حضارتين

شيء ما ارتجّ في أعماقي.

لم يكن ألماً، ولا خوفاً، بل كأنّ عالماً كاملاً انفصل عني فجأة.

ذاك المكان الذي كنت فيه... لا يشبه ما حولي الآن.

موجة خفية، لا صوت لها، لا لون... لكنها جرّتني من أعماقي كما تُسحب الروح من جسد لا يريد الرحيل.

ذبذبة خافتة بدأت في أطراف الجلد، ثم صعدت ببطءٍ مدروس كمن يوقظ ميتاً بحذر، واخترقت عمودي الفقري، حتى وصلت رأسي... ثم اختفت.

ما عشته لم يكن رؤيا. ولم يكن وهماً.

كنتُ في عالم آخر. في زمن لا يعترف بالساعات.

والآن... شيء ما طردني منه.

أو ربما... شيء ما أطلقني.

فتحت عيني.

لا زلت واقفاً حيث كنت، كأن جسدي عاد قبلي بخطوة، وروحي ما زالت تتأرجح بين العوالم...

رغم أن نظراتهم توحي بأنني لم أغب إلا لحظات...

إلا أن ما في داخلي يصرخ بعكس ذلك.

والدي يحدّق بي بقلق واضح، ليس لأنه شعر بغيابي، بل لأن ملامحي تغيّرت فجأة، وكأن دواراً اجتاحني، أو أنني كنت على وشك السقوط.

هو رأى ثانيةً واحدة تمر... وأنا؟ رأيتُ دهراً.

دهراً لم يُقس بالوقت... بل بما تحوّل داخلي.

وها أنا... لم أغب عنهم سوى لحظة، رمشة عين لا تُذكر، لكنني غريب بينهم.
لستُ أنا كما ذهبت... أشياء كثيرة تغيّرت في داخلي.
أشعر بغربة لا تشبه الفقد، بل كأنني نُفيت من عالمي،
وعُدت إلى مكانٍ لا يعترف بي تماماً، ولم أعد أنتمي إليه.

أنفاسي ثقيلة، والعالم من حولي يتلوّن كأنّه يحاول تذكّر من أنا... أو كأنني أنا من يحاول أن يتذكّره.
كم هو غريب... أن تصبح غريباً في عالمك بين رمشة عين وطرفتها،
كأن الزمن انحرف لحظة... لحظة خاطفة كفيلة بتغيير كل شيء.

السماء مغبّشة، رمادية، كأنها فُقدت من الذاكرة.
تراب ناعم يطفو في الهواء، يتسرّب إلى الأنفاس كأسرار لا تملك باباً.
وفي ذلك السكون...
انتبهت.

سمعت وقع أقدام.
خطوات ثقيلة، مختنقة، تتحرّك بين الحصى والتراب كما يتحرّك الخوف في العتمة.
لم تلتقطها أذناي... بل شيء أعمق.
إحساس ارتجاجي اجتاحني، كأنني صغير فيل يتلمّس أولى خطواته في عالم لا يُرى بالعين.

اهتزاز خفي... ينبض ويناديني دون صوت.
كأنني أُعيد اكتشاف الحواس من جديد... تلك التي لم تعد كما عرفتها تماماً.
إنها حواس لم أظن يوماً أنها موجودة في بني الإنسان.
شيء يتجاوز السمع والبصر، كأن الوعي نفسه بدأ يُصغي.

عرفت أنه يقترب، يتسلل، يزحف كنيّةٍ مميتة... رغم أن أحداً لم يره بعد.

عندها فقط أدركت الحقيقة:

ما كنتُ فيه لم يكن حلماً... بل يقظة من نوع آخر.

إدراكي عاد من آسيريا، لكن شيئاً منها جاء معي... أو ربما استيقظ بي في الطريق بين العالمين.

لم يُمهلني الوقت لأصرخ، ولا حتى لأُشير.

خرج من العدم... لا صوت، لا نفس،

فقط ظلٌ امتد فجأة فوق التراب، كأن الهواء نفسه تجمّد لحظة مروره.

من خلف صخرة شاهقة فوق التبّة، انحدر كقطعة ليلٍ انفصلت عن الجبل.

يتقدّم دون استعجال، لكن كل شيء فيه يوحي بالموت.

وحين لمحته عيني، كان قد بلغ العجوز.

وقف خلفه، صامتاً... كأنّه كان هناك طوال الوقت، ينتظر لحظة الظهور.

طويل، كتفاه عريضتان، ساعده مكشوف، وعليه وسم مألوف...

الهرم المقلوب داخل دائرة مشروخة.

وجهه مائل قليلاً إلى الظل،

لكن الندبة التي تقطع حاجبه تكشف قسوة عتيقة، كأنها رسالة كتبتها معركة قديمة.

عينيه جامدتان، ويده تمسك بسلاح صغير، أسود مطفأ، مُجهّز بكاتم صوت لا يكاد يُرى...

لا تهديد في حركته، بل حتمية التنفيذ.

يتمتم بكلماتٍ لا تُشبه ما نعرفه من لغات... كأنها من قاع مقبرة منسيّة.

كل لفظة تنسلّ من فمه مشبعة بإيقاعٍ مريب، موزون كترتيل طقسي محظور.

ليست صلاة... بل تعويذة تُردّد في الظلام، حين لا يكون هناك شاهد ولا غفران.

فيها ما يُوقظ، وفيها ما يُميت...

وكأن فمه بوابة تُغلق خلفها الحقيقة، وتُفتح أمامها النهاية.

"قاتل محترف."

همسها جرجس، بعد أن انقبض وجهه وشحب لونه.

اقترب من والدي، وهمس بصوتٍ مرتجف لا يخلو من الذعر:

"يبدو أنهم كانوا يراقبوننا. هذا واحد منهم... من أوصياء آسيريا. والآن جاء ليُنهي كل ما خرج من هذا الجبل."

اتسعت عينا أمي.

دون تردد، ضمّت أختي الصغيرة بذراعيها، ثم مدّت يدها وسحبتني نحوها، ببطءٍ وهدوءٍ مخيف، كما تسحب روحاً من حافة هاوية.

كنت أترنّح... رأسي يدور، والهواء من حولي يضغط على جبهتي كأن شيئاً ثقيلاً يسكنها.

لم أعد أشعر بقدميّ، وكل شيء بدا خفيفاً... ومُربكاً.

لم أستوعب أنني ما زلت واقفاً إلا حين لامستني ذراعاها.

عندها فقط شعرت أنني ما زلت هنا... بالكاد.

شيء انكمش في صدري، كأن الهواء نفسه لم يعد يتّسع لي.

ثم بدأ كل شيء يتحرّك بداخلي... أصوات لم تكن أصواتاً، بل نبضات، اهتزازات خفيّة تنبع من عمق الأرض، تصعد عبر عظامي كرسائل لا تحمل كلمات.

لم أعد أسمع الخطوات، بل أسبقها.

كأن الحركة تُولد داخلي قبل أن تبدأ خارجاً.

تلك حاسة لا أعرف لها اسماً...

لكنها تجعلني أسمع ما لم يُنطق، وأفهم ما لم يُقَل.

حتى إنني شممت شيئاً حادّاً في الهواء... رائحة دماءٍ خفيفة، لم يلتفت إليها أحد، لكنها كانت هناك، تسري من حولي كإنذار صامت، كأنها تُعلن اقتراب ما لا مفرّ منه.

العجوز لم يتحرّك من مكانه.

بقي واقفاً، ظهره للرجل، وعيناه معلّقتان بي... لا بالسماء، ولا بالأرض.

لم يلتفت. لم يكن بحاجة لذلك.

أدرك تماماً من يقف خلفه، كما لو أن وجوده هناك لم يكن مفاجأة... بل نبوءة تأخرت لحظتها.

"كفى تمتمة يا بني..." صوته خرج هادئاً، لكن خلفه جدار من غضبٍ مكبوت.

"أنت لا تحرس الحضارة... بل تحرس الصمت. هذا الإرث لا يحتاج حراساً... بل شهوداً."

لم يأتِه رد.

الصمت تمدّد كأنّ الهواء نفسه يرفض التدخّل.

رأيت عروق عنق الرجل تنتفخ ببطء، والنبض يتسارع تحت جلده كطبلٍ خفيٍّ يوشك أن ينفجر... وذراعه بدأت ترتجف، كأنها تقاوم أمراً لا مفرّ منه.

تابع العجوز، وصوته يشقّ السكون كمن يقذف بالحقيقة كأنها حملٌ دفين لم يعد يحتمل التأجيل:

"النظام الذي صنعك... جعلك جداراً بشرياً يمنع الحقيقة من المرور.

حوّلك إلى أداة قتل... مغلّفة بشعارات مقدّسة، مبرمجة على الطاعة دون سؤال، كأنّك طُعنت بروحك تحت اسم النقاء.

وما تحميه... ليس آسيريا، بل نظامهم. "

أغمض العجوز عينيه، وتنهد ببطءٍ ثقيل، كمن يودّع شيئاً لا يُقال... ثم أضاف بصوتٍ أكثر عمقاً:

"إن عرف العالم من كانت آسيريا... سيسقط النظام.

حضارة الدم والخراب التي بُنيت على أنقاض الحقيقة ستتهاوى.

هذا النظام الذي يُغذّي الحروب باسم السلام، ويُخفي الأسرار باسم القداسة، سيتصدّع.

وما يحرسه هؤلاء... ليس آسيريا، بل مصالحهم التي تُبقي الإنسان مقيداً في عالم لا يخدمه، بل يستنزفه."

تنهد تنهيدة عميقة، ثم التفت نحوه ببطء، وخطا خطوة واحدة إلى الأمام.

نظراته كأنها تخترق جدار الزمن، بينما الآخر يزداد توتراً، شدّ على فكه، وانقبضت عضلات وجهه كأنّ النار اشتعلت فيه فجأة.

تابع العجوز، وصوته اشتد كأنّه يقذف بالحقيقة الأخيرة... للمرة الأخيرة:

"نحن الآن أمام لحظة واحدة،

هذا الصبي... بيننا، يملك القدرة على تفجير الذاكرة، لا داخل رأسه فقط... بل في قلوب الجميع.

إرثنا ما زال حياً... ونحن نملك الفرصة."

فجأة... انفجر الرجل.

وخرج صوت من داخله كأن صدعاً انفتح في صدره،

لا هو صرخة، ولا هو أمر...

بل عاصفة هائجة من غضبٍ قديم لم يُروَ.

"أنت خائن! أتيت لتكشف السر... لتُعيد إلى النور ما صُمّم ليُدفن في الظلام. خنت العهد، وأنت تعرف تماماً ثمن الخيانة! "

يده ارتفعت... المسدس وُجّه...

وقبل أن تنطلق الرصاصة، شعرت بها.

لم أرَها بعيني، فالعجوز يدير ظهره لي،

لكن شيئاً داخلي ارتجف كأنّه التقط صدى دمعة سقطت قبل أن تسقط.

لحظة لا تُرى... بل تخترق الستار، وتخبرك أن شيئاً انكسر بصمت.

سمعت صوته، يدرك أن هذه هي النهاية، كأن كل شيء انحنى ليمرر كلمته الأخيرة:

"كنتَ حفّار قبرٍ لإلهٍ مزيّف... لكنك لم ترَ النور بعد يا ولدي."

طلقة.

صوتها لم يكن انفجاراً، بل وخزة معدنية حادّة، خرجت من كاتم الصوت كهمسة مميتة اخترقت الهواء وانتهى بها كل شيء.

تراجع للخلف،

ضغط على صدره، كأنّه يُمسك سراً يريد أن يحمله معه...

ثم التفت نحوي.

الدم تدفّق كنبعٍ انكسر، لكن يده لم تسقط.

نظر إليّ، ومد يده الأخرى...

نظرته لم تكن وداعاً، بل وصية تُسلَّم في اللحظة الأخيرة.

"العصا..."

قالها وكأنها الكلمة التي خلق من أجلها.

الصرخة خرجت من فم أختي أولاً.

الأنين من صدر أمي.

أبي اندفع نحونا، سحبنا بقوة.

جرجس لم يتحرك، شيئاً غير مرئيٍّ ثبّته بالأرض، شلّ كل خلية فيه.
ثم صرخ، بصوتٍ شقّ الهواء وفتح فيه صدعاً لا يُرمم: "لقد فعلتها!"
واندفع نحو الرجل، بعينين لا تحملان سوى قرارٍ لا عودة فيه.
عيناه تقدحان، كأن شيئاً بداخله انكسر ولم يعد قابلاً للترميم.

اختفى الكلام، تجمّد التفكير...
ولم يبقَ سوى صوت الاصطدام.
جسداهما تدافعا على الأرض، أقدامهما ترسم دوائر في التراب، والسلاح سقط.

العصا في قبضتي.
الهواء من خلفنا ممزق كجرح، وكأن شيئًا لا يُرى يركض خلف أنفاسنا، يريد أن يبتلعها قبل أن نلتقطها.
قلبي يركض قبلي، لا ينتظر قدمي.
اندفعنا نحو السيارة...
فتحنا الأبواب كمن يقتحم النجاة.
والدي خلف المقود، أدار المحرك بعجلة، وانطلقت السيارة كطلقة نجت من فوهة الموت.

وفي اللحظة التي ابتعدنا فيها، التفتُّ...
رأيت جسد جرجس ممددًا على الأرض، وسط بركة من الدماء، ساكنًا كأن الحياة قد غادرته.
والرجل ما زال واقفًا فوقه، يمسك المسدس بيده،
والدخان الخافت يتصاعد من فوهته.

أمي صاحت بلهفة مرتجفة: "أسرع! بالله عليك أسرع!"
صوتها انكسر في منتصف الجملة، ويدها تشدّ على المقعد كأنها تحاول اقتلاع الطريق تحتنا.

خلفنا بقي الجبل، والعجوز، وجرجس، والقاتل المجهول...

وبقي شيءٌ آخر لا يمكن دفنه أو قتله:

أننا لم نعد نبحث عن حضارةٍ غابرة... بل عن الجزء الذي سُرق من أرواحنا.

عن الحقيقة التي وُئدت بأيدٍ تدّعي الحماية.

عن الذين غابوا بأجسادهم... لكن صراخهم لا يزال يرتدّ فينا.

لقد تغيّرنا.

لكننا لم نتغير من تلقاء أنفسنا... بل استُهدفنا.

وفي داخل كلٍّ منّا بذرة لأصلٍ أُجبرنا على نسيانه.

وهناك من لا يريد لنا أن نعود إلى ما كنّا عليه...

لأن عودتنا تعني انكشاف الأكذوبة التي شيّدوا فوقها وجودهم، وتعني سقوط منظومةٍ لا تزدهر إلا حين يُنتزع وعي الإنسان.

حضارة بُنيت على دفن الحضارات، وعلى قمع الوعي والتلاعب بالإدراك...

تتعمّد طمس كل أثرٍ يمكن أن يهدّد وجودها، ولو كان مجرّد ذكرى تذكّرنا بما كنّا عليه أول مرة.

فما نحن إلا أرواحٌ تمضي محمّلةً بالذاكرة...

لا كعبء، بل كبوصلةٍ.

# الإصدار الكامل: 60 فصلاً

الإصدار الكامل: 60 فصلاً
كلّ فصلٍ منها شيفرة،
وكلّ شيفرةٍ، حجرٌ جديد في هرمٍ معكوس...
ينكشف من أعلاه لا من قاعدته.

ابتداءً من الفصل العاشر، تبدأ الرحلة عبر متاهةٍ من الرموز،
والأساطير، والانعكاسات النفسية،
رحلةٌ لا تُقدّم الحقائق كما هي، بل تفكّكها لتُعيد بناءها على حافة الجنون.

📅 تصدر بتاريخ 2026/01/01
✴️ وحتى لحظة الإصدار، تمرّ الرواية بمراحل مراجعة هادئة،
بصحبة قرّاء يمتلكون شغفاً بفكّ الرموز وتتبع الظلال بين السطور.

💰 السعر خلال فترة الطلب المسبق: 0.99$
📈 السعر بعد الإطلاق: 9.99$

🔗 احجز نسختك مسبقاً الآن عبر الرابط التالي:
https://books2read.com/TheInvertedPyramidar

روايات وكتب سابقة لـ أحمد أ. الخليل

*اللحظة صفر - النسخة العربية*

*سلسلة ابن الفوضى #1*

*أحداث هذه الرواية حقيقية، أو ربما غير حقيقية الأمر يعود لتفسير معنى الحقيقة لديك او ما سوف يغدو عليه*

أقدر تماماً أن وقتك ثمين، صدقني، أنا أكثر من يعلم. لهذا كنتُ حريصاً ألا تكون هذه مجرد رواية تقليدية، عادية، للتسلية أثناء شريك فنجان قهوتك الصباحي. لعلي أريد بها إثارةَ ذلك الجنون داخلك، الذي قيل لك دوماً، أنه سيكون سبباً في نبذك، وطردك، خارج القطيع.

بحث عنه البشر عبر آلاف السنين من تاريخهم، وقد أجابوا عليه كلَ مرة، على الرغم من أنهم لم يجيبوا ولا مرة، السؤال الأعظم والأكثر منطقية والأكثرُ غموضاً بين الأسئلة الوجودية كلها! ماذا كان قبل أن يكون أي شيء؟ كيف نشأ كل شيء؟ ما هو الزمن صفر؟ ما هي اللحظة صفر؟ ما هو اللاشيء؟

إلى كل المنطوين على ذاتهم، المنعزلين الغرباء عن مجتمعاتهم إلى كل المجانين، في نظر من حولهم أنتم من يحدث الفارق

*الطائفة - النسخة العربية*

*سلسلة ابن الفوضى #2*

*الذئب يأكل شارد الغنم*
*وفي القطيع نجاتك.... يا بعير*

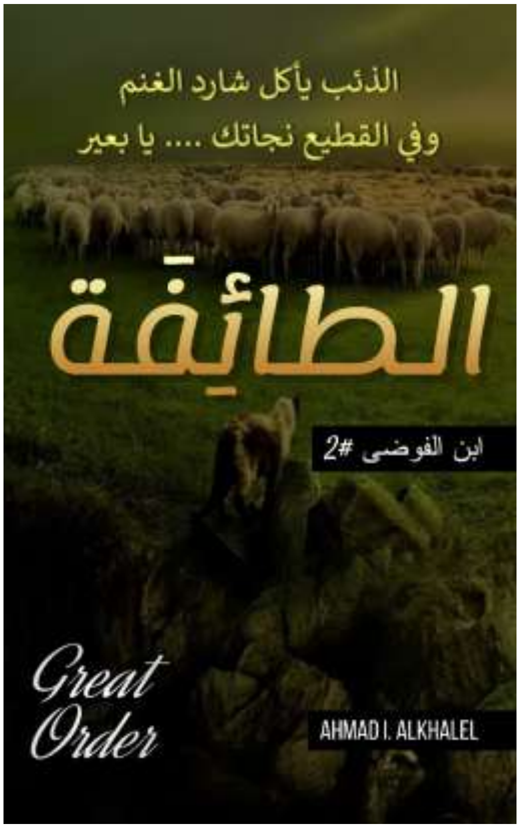


"إن مرت جميع تجاربك المؤلمة، والمخيفة، بلا أن تتمكن من نقلها للآخرين، فهي لم تكن كذلك، فالألم أول ما يوجده في الإنسان، هو القدرة على التأثير"

هذه الرواية لا تسيء إلى طوائف معينة، ولا تدعمها..

فالكاتب يؤمن أن كل إنسان مستقل بحد ذاته، له كيانه ونظامه الخاص، ويؤمن أن على الجميع العمل على حماية كل مضطهد، ودفع الظلم عن كل مظلوم، بغض النظر عن المصطلحات والتسميات.

وقد جرت العادة في شريعة الغاب، أن الأقليات في المجتمعات قد يتعرضون للظلم والاضطهاد، بدرجات متفاوتة من مجتمع إلى أخر، وعليه فإن الكاتب يؤيد ضرورة حمايتهم.

ولكن عندما تجتمع أقلية من الناس على ظلم الأغلبية، فلا يمكننا حينها القبول بجريمتهم، أو الصمت عليها، بذريعة حماية الأقليات، خصوصاً إن تحولت الطائفة إلى ما يشبه التنظيم السري، له أهدافه التي يعمل على تحقيقها بوسائل غير مشروعة على حساب الأغلبية.

## *لعنة زينب - النسخة العربية*

*سلسلة ابن الفوضى #3*

البدايات تقرر مصيرك

وفي كثيرٍ من الأحيان، يُصنع الأبطالُ من بداياتٍ غايةً في الغرابة

فلا تهتم لما كنت عليه، ولمَ أنت عليه اليوم!

المهم ما ستكون عليه غداً.

بعد الأحداث المشوقة في الرواية الأولى "اللحظة صفر" والثانية "الطائفة" من سلسلة روايات ابن الفوضى، بات لزاماً معرفة هذا بطلها المجهول أكثر، فما قصته؟! من أين هو؟ وكيف أصبح الرجل القادر على التلاعب بالآخرين بهذا الشكل؟!

ولمعرفته جيداً لا بد من معرفة تاريخه، ليس منذ مولده فقط، بل حتى قبله بمائة عام وأكثر، هذا ما نكتشفه في هذه الرواية.

ما بين اللعنات الفرعونية، والأصول التركية العربية، سر خطير قَدم الرجال أرواحهم قبل عشرات السنين في سبيل الحفاظ عليه، تولد قصة عُنف وجنون صنعت حالة استثنائية.

# *هوامش الإدراك*

## *سلسلة العقل المتشظي #1*

ما ندركه ليس كلّ ما هو موجود - بل فقط ما نجا من فلاتر عقولنا الهشّة.

ماذا لو لم يكن عقلك يعرض لك الواقع، بل فقط ما يعتقد أنك قادر على تحمّله؟

في "هوامش الإدراك"، الجزء الأول من سلسلة "العقل المتشظّي"، يأخذك أحمد I. الخليل في عاصفة فكرية هادئة - حيث ينهار اليقين، وتتسرّب الحقيقة من بين الشقوق. هذا الكتاب لا يمنحك أجوبة، بل يقدّم شظايا: مقالات، تأملات فلسفية، وانعكاسات خام تغوص في الفوضى، والإدراك، والذاكرة، والهوية، وفي الثورات الصامتة التي يشهدها العقل.

بلغة شاعرية وعميقة، ولكن في متناول كل من تجرأ أن يشكّك فيما يراه، ويشعر بثِقَل أشياء لا يعرف كيف يسمّيها.

ادخل الهوامش... واكتشف ماذا يحدث عندما لا يعود الفكر في خدمة العقل، بل يبدأ بتشظيته.